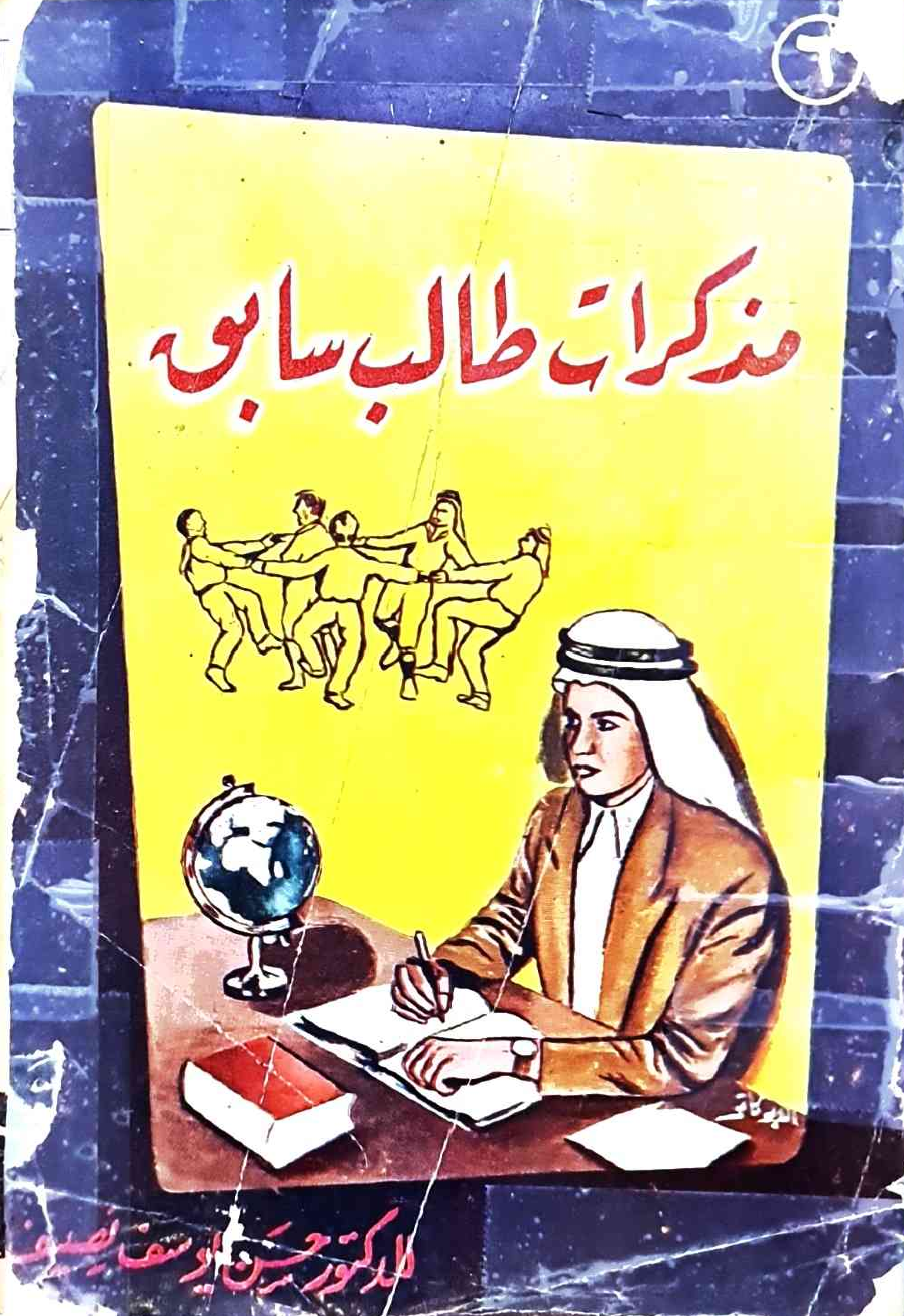
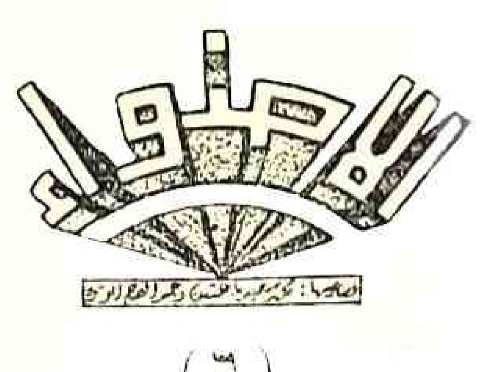

٦
مذكرات طالب سابق
للدكتور حسن يوسف نصيف



(٦)

مذكرات طالب سابق

الدكتور حسن يوسف نصيف

سلسلة باعشن وابي مدين الثقافية

سلسلة شهرية تصدر عن جريدة الأضواء المحتجبة

كلمتى ....

قارئى الحبيب . . . .

للمرة الثالثة يتخلف الزميل عبد الفتاح أبو مدين عن تقديم هذه الكلمة . . . تخلف المرة الأولى عند تقديم كتاب الدكتور النابه محمد سعيد العوضى « أحاديث » ، والمرة الثانية كانت بدافع الحرص على عدم تقديم نفسه للقراء ، وعلى عدم التحدث فى باكورة إنتاجه عن مشاريع هذه السلسلة وأهدافها وهو يمد إليك بنتاجه الأول ، فقبلت فى الحال أن أكتب عن زميلى عبد الفتاح فى كتابه الأول ، وكتبت تلك الكلمة أو المقدمة القصيرة بدافع الحب لعبد الفتاح ، ودافع الواجب ... واجب الناشر تجاه العمل الذى يقوم على إظهاره للقراء .

وللمرة الثالثة أيضاً تشاء الظروف من تلقاء نفسها أن تفرض علىّ تقديم هذا الكتاب إلى القراء . . .

وهى مناسبة كريمة ، حبيبة إلى القلب ، إذ يسعد

المرء أن يتحدث عن مشاريعه الثقافية والفكرية بأسلوب الواقع ، الذى يعيش فيه ، ويتفاعل معه ، بأسلوب الفكرة والمبدأ ، اللذان يسايران اتجاهاته ونزعاته . . .

ولنقدم فكرة موجزة . . .

ولدت الفكرة أول ما ولدت عام ١٣٧٦ هجرية فى إحدى أمسيات شهر ذى القعدة ، عند ما كنت والزميل عبد الفتاح أبو مدين نجهز العمل لإخراج أول صحيفة تصدر فى مدينة جدة . . . « الأضواء » . . . عندما أخذنا نحدد الأهداف ، والمرامى البعيدة . وعندما مهدنا الطريق الذى ينبغى علينا السير فيه . ووضعنا منهجاً لنا وهدفاً . . . وكان منهجنا هو إيجاد لون جديد من الأدب الحجازى ... إظهار فئة من الوجوه الخاصة التى لم يصادفها الحظ فى الظهور ، أو ممن وقفت دونهم عقبات مبعثها الرجعية والجهل وحب القديم لقدمه ، لالميزة فيه تصدت لهم هذه العقبات تسد الطريق عليهم . وتغلق النوافذ أمامهم .. وكان هدفنا تصفية أدبنا من أنصاف الكتاب والشعراء ،وأصحاب الزعامات الخرافية ، والدعاوى الرخيصة ، والنداءات الفاشلة ، التى تزعم فلاناً أستاذاً للجيل ، ورائداً للشباب ، وإماماً للفن ، وقائداً للفكر الجديد . فرداً صمداً ، واحداً أحداً ، لا كاتب غيره ، ولا إمام سواه . هو خالق الفن ومبدع المعجزات ، راسم الصور واللوحات وواضع المناهج الابتداعية وصنو فيكتور هيجو وأفلاطون وسقراط وغير ذلك من أسماء الكتاب والمفكرين اللامعين الذين أهدوا إلى العقل البشرى خير تراث علمى وأدبى .. كان همنا أن نحطم هؤلاء الدجالون المفرضون ... الذين يفرضون علينا نوعاً معيناً

من الأسماء الأدبية .. بحجة « الأستاذية » و « الأقدمية » .

ففد وجدت فئة ، همها الأكبر تقديس كاتب معين معروف . تشيد بأعماله الأدبية بمناسبة وبدون مناسبة ، وديدنها « التنهيق » له والدفاع عن شخصيته الأدبية وزعاماته الفكرية .

حفظت عن ظهر قلب أسماء لامعة ناجحة فى دنيا الفكر والأدب . وأخذوا يقيسون عليها أستاذهم ومريدهم ، ويألهونه ويطلقون أمامه البخور . . . ويتلون الأوردة والالتماسات أمامه . . . فئة أسلمت نفسها للشيطان ووضعت نفسها تحت تصرفه وإمرته يصرفها كيفما شاء . . . وكيفما اتفق . . .

لا تفقه فى الحياة شيئاً ، ولا تلزم نفسها بعمل إيجابى كريم .. إلا الدفاع الأجوف والتطبيل والتزمير لأحد الفتوات الذين ظهروا على الملأ ، وعلى سماء الأدب الحجازى فى زمن قل أن تجد فيه من « يفك الحرف » وعز أن تعثر على من يعرف أو يلم إلماماً ولو بسيطاً بالمعانى السامية النبيلة . فاحتكرت الحياة الأدبية .. وأصبحت الإقطاعية فى الأدب تمثل جيلا معروفاً لا يزال يعيش معنا ، ويقاسمنا الحياة ، ويفرض علينا نوعاً معيناً من الأدب الخانق الملوث بالخنوع والاستجداء والمعلق بالمصالح الذاتية الصرفة .

وكان لزاماً علينا أن نرفع الأقنعة الحاجبة ، وأن نكشف الستار عن هذه المهازل الصبيانية ، وأن نجد فى عزم وإيمان لتطهير الأدب من سماسرة الرجعية وأذناب الانفصالية .

وكم كان بودنا أن « نرمم » هذا البناء ، وأن نحاول إعطاء الفرص

لمشائخ الأدب القديم ، أن نمهلهم ولو إلى حين معين .. ولكن .. كانت أفكارهم ومبادئهم لا تزال تحن إلى الماضى .. تعيش بين ركام الذكريات والأيام الخوالى .. والليالى التى كانوا فيها « يصهللون » « ويتجاكرون » فتركناهم وشأنهم .. تركنا الأيام ريثما تعلمهم .. وتركنا التاريخ ليدون مالهم وما عليهم ..

وجددنا فى أسلوب التقديم والإظهار على طريقة «العرض والطلب» سعينا جاهدين إلى تسليط الأضواء على نوع معين من الكتاب ... ركزنا همنا على التعاون مع الكتاب اللامعين « القدامى » الذين يعتز برأيهم ويستفاد من أفكارهم ، أمثال الأستاذ الكبير « محمود عارف » و « احمد قنديل » و « أحمد عبد الغفور عطار » وخلافهم من المتمكنين من فنهم وأدبهم ويعتبرون حجة فى الرأى السديد البعيد عن «التحطيب» والقدح والسباب .

الأدباء الذين يفخر بهم وبآرائهم ومشوراتهم .. تضافرنا معهم وأخذنا منهم دروساً للحاضر ، وعظة للمستقبل ، وتسابقنا .. تسابقت جريدة «حراء» الصوت الوطنى الأول فى الصحافة الحجازية ، على إظهار نوع خاص من الكتاب والصحفيين ، احتضنتهم .. ودافعت عنهم .. وكذا أيضاً فعلت « الأضواء » ركزت جل اهتمامها على الشباب .. الشباب الجديد .. الأمل الباسم فى الإشراقة الجديدة .. وخصصت الأبواب الثابتة للشباب الجامعى ، وأخذت تستفيد منه وتفيد .. ومشت على هذا المنوال « عرفات » .

وعندما شرعنا فى إخراج هـذه السلسلة إلى حيز الوجود إلى عالم الحقيقة . . إلى الواقع الملموس . . إلى مجال العمل . . كان غرضنا واضحا نيراً لا غموض فيه ولا إبهام،وكانت معالمنا المرسومة لتحقيق هذه الفكرة التى داعبت أملنا وهو لا يزال فى مهده وليداً أن نقفز بأدبنا ، أن نحيطه بسياج منيع من الدعاية والذيوع . . أن نصهره فى بوتقة نافعة . . وأن نضاعف المكتبة الحجازية بنماذج أخرى من الأدب الحى الرفيع — لا الأدب المحنط — بعد أن انحرف منتجوه عن التورط فى طبع إنتاجهم واختزانه لحساب السنين .

فقررنا إخراج بعض نماذج أدبية من إنتاج شيوخ الأدب الحجازى على سبيل التقدير وفى الوقت نفسه لفتح المجال واسعاً أمام تيار الأدب النابض .. أدب الشباب .

وأخذنا نسير فى طبع المؤلفات الناجحة لأدباء الشباب .

وكتابنا هـــذا ، الذى يسعدنى أن أقدمه ، وأقدم مؤلفه الكريم الدكتور النطاسى البارع حسن نصيف ، هو سادس كتاب ومؤلف تقدمه أسرة الأضواء منذ أن أخذت تشرع فى تصدير هذه المؤلفات المنظمة فى سلسلة شهرية ثابتة ، وثالث كتاب تدفعه إلى النشر بعد أن احتجبت « الأضواء » عن الصدور وسحبت رخصها وأصبحت فى ذمة التاريخ القريب البعيد .

سادس كتاب نخرجه فى ظرف سنة واحدة .. فى أيام محدودة ، وقد عزمنا على السير فى هذا الطريق . . طريق إخراج الآثار الأدبية من

جذورها ونشرها لكى يعرف العالم أن فى الحجاز البلاد التى شع منها النور . . . نور الهداية . والإيمان . . والحق . . أن فى الحجاز أدباً فنياً ، وأدباء إن لم يكونوا أرفع درجة فى إنتاجهم القوى .. الذى يستمد من الصحراء قساوتها ومن الإيمان قداسته الطاهرة ومن الحطيم وزمزم والمسجدين طهارتهما فلن يكونوا على أية حال من الأحوال إلا فى درجة المساواة والندادة .

ونحن إذ نجازف فى إخراج هذه السلسلة الأدبية الشهرية بصورة منتظمة .. نجازف فى وقت كان من الممكن أن يتبنى هذا المشروع شخصية كبيرة من شخصياتنا الواسعة الثراء المنعمة بالخير والرفاهية ، ولكنها مجازفة محمودة . مجازفة لها ما يبررها ، فإننا نريد الخير لهذه البلاد .. الخير لها وللعاملين فى مضمارها الحيوى العام ، لهذا ، فإننا سائرون فى طريقنا ، لا يثنى من عزمنا دافع ، ولا تقلل من عزيمتنا هذه المصاريف الكبيرة التى نتكبدها شهرياً فى إخراج هذه السلسلة ونحن نؤمن أن فى وزارة المعارف رجال أكفاء يقدرون هذا العمل الشاق الذى نحن سائرون فيه .. وهم بطبيعة الحال يستطيعون أن يخففوا عنا بعض العناء ، يسهمون بقدر كبير فى إنماء هذه الحركة الثقافية الجديدة ، وإنهم لفاعلون ومؤمنون بخصائص هذا المشروع الأدبى .. وإننا على ثقة فى حرصهم الشديد لبقاء هذه السلسلة على قيد الحياة .

وبعد :

وإننى وقبل أن أقف فى ختام هذا التصدير أو هذا الكلام فى تقديم

كتاب الدكتور حسن نصيف،أود أن أنوه بفضل رائد الأدب الحجازى الأول الكبير صاحب المعالى الوزير الجليل الشيخ محمد سرور الصبان ، الرجل الذى وضع اللبنة الأولى فى صرح الحياة الأدبية فى الحجاز ، وأول من ساهم فى نشر المؤلفات الحجازية من جيبه الخاص يدفعه فى ذلك واقع الخير لبلاده ورقيها .. ليسرنى أن أشيد بجهاد هذا الرجل الذى أخلص لبلاده الإخلاص كله .. ومنحها من حبه وعطفه الشىء الكثير .. الشىء الذى لا ينسى .. وسيسجل له التاريخ ما قام به من أمور ومسئوليات جسام كان فيها خير مثال يقتدى للرجل النافع العامل .

حفظ الله شيخ الأدب وراعيه معالى الأستاذ الكبير :

محمد سرور الصبان

أول داعية لنشر نتاجنا الأدبى ، وإفساح المجال له واسعاً لكى يشق طريقه أمام التيارات الأدبية الأخرى حفظه الله رمزاً للعمل الكبير والتضحية والفداء . . وإلى اللقاء فى الكتاب القادم .

محمد سعيد باعشن

القاهرة فى ٢٥ مايو ١٩٥٩

مقدمة إيحائية .....

للكاتب الساخر : احمد قنديل

لقد عرفت الدكتور حسن نصيف طالباً فى مدرسة الفلاح حين كنت أحد الأساتذة الدارجين بها طلاّباً بين المكاتب والأدراج ، والناشئين فيها أساتذة بين الفصول ـ والأحواش ـ من بنايتها الكائنة فى الجزء الشمالى الشرقى من مدينة جدة القديمة فى عهدها لما قبل هدم السور القديم ذى الأبراج والأبواب ...

وتميزت المعرفة به حينذاك ـ على أنه الطالب ذو الدماغ الكبير ـ والذكاء الحاد .

كما قرأت الدكتور كاتباً ـ فى جريدة البلاد السعودية لمذكرات طالب سابق ـ يرمز لنفسه ـ بحكم المهنة ! ـ بابن سينا ـ بجامع الحكمة ـ أو الدكترة ... فى كل ...

وكانت مذكرات هذا الطالب السابق بعض ماأحرص على قراءته من الجريدة التى كنت أحد أفراد أسرتها -من الباطن !- بشغف و إعجاب .

واليوم- يريد الأديب الأستاذ محمد سعيد باعشن أحد أصحاب الأضواء وسلسلتها الأدبية أو الفقرية - أن أكتب مقدمة المذكرات للقراء .

ويخيّل إلىّ - بتعبير الأب الأستاذ عزيز ضياء - وحسب التحريات البوليسية للصديق الأخ عبد المجيد شبكشى - أن اصطفائى لهذه المهمة - أنا الذى لم تسجل علىّ أية سابقة فى صحائف سوابق كتابة المقدمات - إن المبرر المعقول هو جناية معرفتى القديمة للدكتور - دراسة وقراءة ! -

ولعل المبرر المنقول هو كما طالعتنى به نظرات الأديب ناشر المذكرات -فى ضحكات ملفوفة - رابطة الأسلوب «الفكاهى» بينى و بين الدكتور .

فالتصوير الفكاهى الساخر - هو العنصر السائد - أو نقطة الارتكاز فى كل فصول هذه المذكرات ...

... ثم إن صاحبها علم من أعلام « النكتة » الفنية - تدل على ذلك أزجاله ومساجلاته البارعة - فى هذا الميدان مع زميليه - الفار والحداد - أو بادكوك والجحجوم !

و « هو » أو أنا ... ولا ضير عليك من هذه الضمائر المنفصلة - أو المتصلة بنا - صاحب القصائد الفكاهية - أو الشعبيات - كما سماها

أخيراً عم الجميع الأستاذ السيد أحمد السباعى – فى جريدة الندوة اليومية التى هى إحدى التوائم فى التاريخ الحديث لصحافتنا الموحدة !..

والشعبيات فى علم الانساب للتاريخ – ولعامك الشخصى – فصل من فصول صحافتنا القديمة قبل التوحيد ، فقد كانت تنشر من حوالى ربع قرن من الزمان ، فى جريدة صوت الحجاز الأسبوعية ...

والفرق الوحيد بينها – أى شعبياتنا القديمة – وبين أزجال الدكتور ومساجلاته مع زملائه الفنانين العصريين ، أن الأولى صيغت باللهجة الحجازية البلدية غير الفصحى إلا فيما يتعلق بالوزن وقواعد الإعراب فى القافية ... وأن الثانية صيغت فى ألفاظها وصورها باللهجة المصرية بقافية – أو من غير قافية ! .

أرجح أن ذلك هو المبرر لاختيارى لكتابة مقدمة مذكرات الطالب السابق ، والعلم كالمغنى فى بطن الناشر !

وعلى الأسلوب القديم ، فى قصص عنترة ، وأبو زيد الهلالى ، والزير سالم ، فهذا ما كان من أمر المقدمة وأسباب اختيارى لها ، على تضارب فى الأقوال والأخبار ...

أما ما كان من أمر المذكرات نفسها ، فإنها الآن وقد طبعت جاهزة حاضرة بين يديك ، فلا تنتظر منى أيها القارىء أن أساير

التقليد المتبع فى الإشارة ، أو النقد ، أو التعليق ، عليها أو عليك !.

فإننى ممن يكرهون عصا الأستاذية ـ كلما سنحت لهم مناسبة التباهى بحملها ـ إن يسرت لهم الظروف الحسنة أو السيئة ، فألقت فريسة سائغة بين يديهم فرص كتابة مقدمة لكتاب ، أو مذكرات ، أو مقعدٍ ، أو ديوان ..

كما أننى العدو الأول من قديم الزمان لهذا « المتَّبع » أفندى فى الشروح والتعليقات ، إلا أننى كنت ... إلا أننى كنت ماذا ؟!

كنت أفضل ـ أولا ـ أن يقوم الدكتور بإجراء عملية «الزائدة» لاسم المذكرات ، لتكون مذكراتى ، أو مذكرات طالب ، بدلا من مذكرات طالب سابق !..

فهو فيما أعتقد ـ باعتباره خريج بعض معاهد التجميل فى القاهرة ـ أو برحة نصيف فى العلوى ـ أحد دعاة الرشاقة والنحافة والإيجاز ! ..

وأنا ممن لا يحتملون فى التسميات، والعناوين أكثر من الكلمة الواحدة ـ على مذهب الصاوى ـ فى « ماقلّ ودلّ » إن كان ذلك فى الإمكان ..

كما كنت أرجو ـ ثانياً ـ أن تُزوَّد أو تُزيَّن مذكراته عند الطبع ـ بالطبع ! ـ ببعض ما فى « ألبوم » الحوادث والمناسبات للصور التذكارية ـ من صور ـ ورسوم .

ولعل الدكتور مستجيب لنا فى الطبعة الثانية ــ إن زاد اليوم عدد الزبائن القراء فى بلادنا ، أو زادت مقطوعية الأدب الحديث هنا وهناك .

أو لعله يتدارك هذا النقص لضمان الرواج ــ فى مذكراته الجديدة بصفته طالباً لامعاً من طلاب هــذه المدرسة الـكبرى ــ كما يسمون « الحياة » اليوم .

و بعد ــ جرياً على سنن خطباء المنابر الأفذاذ ــ وهى تقفيلة مباركة .. فقد أصبحت موضة المذكرات ــ عند المدنيين من الفنانين والفنانات على السواء ، لوناً طريفاً وشائقاً من ألوان النشاط الفكرى والترغيب إلى رصد الحوادث ، وتسجيل الرحلات ، وغايتها فيما نراه الدعاية والترفيه !..

كما أنها عند العسكريين ــ أو السياسيين الـكبار ــ أسرار ما وراء الحوادث ، والأسرار .. والتصوير الزمنى لفظياً للمستندات والوثائق السرية ــ وحياة ما وراء الطبيعة الظاهرة والحياة العادية ــ وهدفها فيما نعتقد إزجاء الفراغ ، فازدياد رصيد الشهرة ، والـكسب المشروع ...

ولما كانت المذكرات ــ ولا تزال ــ القاعدة الذهبية لهذا وما شاكل ، والسلم الموسيقى فى تاريخ نشأة القصص ، والرحلات ، والروايات . . . ولما كانت القصة فى تاريخ الأدب الحديث اليوم ــ قمة

الأدب السائد والمقروء عند الجيل الصاعد ـ والهابط على السواء ، فلعل الدكتور على القياس المساسل إياه ، يفاجئنا بعد أعوامه الأولى فى مكة والأخيرة فى الرياض ـ بقصة أو أكثر من القصص الطويل أو القصير .

تلك بعض ميزات المذكرات وكتابتها ـ بما فيها ـ مذكرات طالب سابق ، وعقباها .

والعاقبة لديكم فى المسرات . .

أحمد قنديل

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى زملائى فى الدراسة . . .

وإلى إخوانى الطلاب الحاليين .

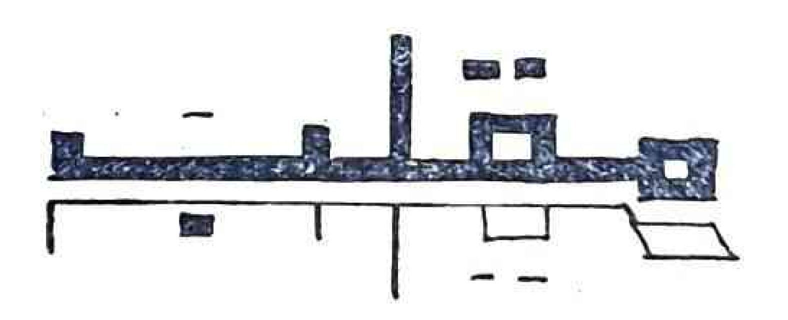
بناء على طلب الكثيرين من الأصدقاء والزملاء أقدم هذه المذكرات التى ضمنتها الحوادث الضاحكة والجادة التى مرت بنا أيام الدراسة وأرجو أن تتاح لكل واحد منهم الفرصة ليسجل مذكراته فى عهد التلمذة .

والله الموفق ؟

١٣٧٨ هـ

١٩٥٩ م

الدكتور حسن نصيف



مقلب

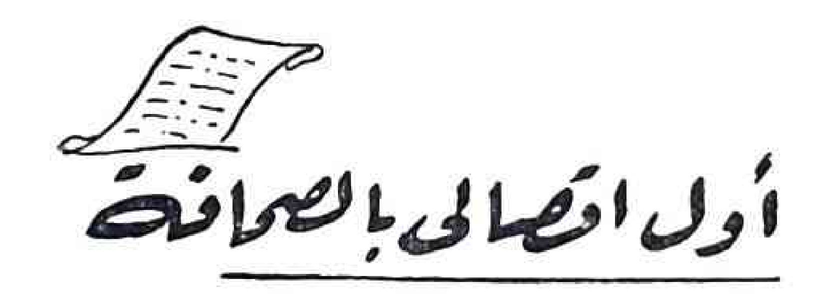
أى والله إنه مقلب من البلاد السعودية ، وإلا فكيف أتورط فى نبش هذه الذكريات وقد تكون فيها أسرار تتعلق بى أو بأصدقائى ؛ وأنا أعرف أن أسلوبى والحوادث التى سوف أسردها ستكشف عن إسمى للخاصة ولكن ثقتى فى سرية الإسم عند أسرة التحرير سوف تريحنى من عناء كثير .

فمثلا أستاذنا السيد ولى الدين أسعد مدير البعثات السعودية بمصر سابقا ومن بعده من مديرين ومراقبين كم كانوا سيدفعون ثمنا لحرف واحد أخطه عن ذكريات البعثة فى مصر وما يتبع ذلك من كشف يؤكد عن أشخاص مدبرى الحوادث فى البعثة ثم العدد الطيب الذى أعتز به من تلامذتى الذين كنت أدرس لهم فى كل من مدرسة الفلاح بجدة ومدرسة تحضير البعثات بمكة ؛ أية خيبة أمل سوف يواجهونها فى أستاذهم السابق الذى كان يبدوا لهم كالملاك .

وأخيراً أولادى . . إن كل واحـــد منهم عبارة عن شقاوة متحركة وأنا أربيهم تربية حديثة قوامها القدوة الحسنة والحرية فى المناقشة وعدم الاستبداد بالرأى .. كيف تستمر هذه القواعد التربوية فى التطبيق عليهم لو عرفوا حياة أبيهم على حقيقتها أيام التلمذة دون

رتوش .. هل سيستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أم يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون ؟ .

حقيقة إنه مقلب .. ولكن رب ضارة نافعة . لعل أصدقائى الذين اتهمونى طويلا بتدبير المقالب يؤمنون أخيراً بسذاجتى وكيف وقعت من أول وهلة فريسة لهذا المقلب الطريف ..



أول اتصالى بالصحافة

إن الذكريات تستمد من الذاكرة لا من كتاب مكتوب ، لذلك سوف أنشرها دون مراعاة لترتيب التواريخ ، بل وفقاً لما تسعفنى به الذاكرة . .

كان ذلك فى عام ١٣٥٢ على ما أذكر وكنت طالبا بمدرسة الفلاح بجدة وعمرى اثنتا عشرة سنة حين زارنا خالى ومعه ورقة كتب فيها مقالا بعنوان « الغرفة الفلاحية لتعليم اللغة الإنجليزية بجدة » وموقعة بتوقيع [فلاحى] والكلمة فيها دعاية لأستاذنا الأستاذ « على عيد » أثر عودته من الهند وافتتاحه مدرسة ليلية لتعليم اللغة الإنجليزية ، وطلب خالى أن أبعثها إلى جريدة محلية لنشرها كأنها صادرة عنى فاستصوبت هذه الفكرة .

وما أن نشرت هذه الكلمة حتى بدأت أتيه أمام زملائى وأشير إليهم من طرف خفى أننى صاحب الكلمة .

وحثنى ما قابلنى به زملائى على مواصلة السير فى الطريق . .

ولكن خالى لم يعد يأتينى بكلمات جاهزة للنشر ، فما العمل . . عمدت إلى كتاب [أسلوب الحكيم] الذى كان والدى قد أهداه إلىّ واقتبست منه اقتباسا حرفيا مقالا عنوانه [العلم] ووقعته باسم [المتعلم

الفلاحى] ونشرته الجريدة التى كان يشرف عليها أحد أقربائى ..
وأخذ الزملاء يتهامسون ويتساءلون عن هذه النجابة الإنشائية الطارئة ..
وانطلت الحيلة على والدى فزودنى بمجموعة جديدة من الكتب الأدبية.

ثم رأيت أن أستمر وأن لا أحرم القراء من هذا الإنتاج الأدبى الرفيع .. فعمدت إلى [أسلوب الحكيم] مرة أخرى واقتبست منه مقالا عن (الأخلاق) اقتباسا حرفياً وبعثته إلى الجريدة ، ويظهر أن قريبى المشرف على الجريدة أحس بالأمر فلم ير هذا المقال النور حتى يومنا هذا .. وكانت خيبة أمل ، صرفتنى على كره - عن الكتابة فى الصحف مدة طويلة ، وحرم الناس من هذا المنهل الثقافى العذب الذى لو استمر لكانت ثقافة القراء فى بلادنا قد انقلبت رأساً على عقب .

ولكن الله سلم .

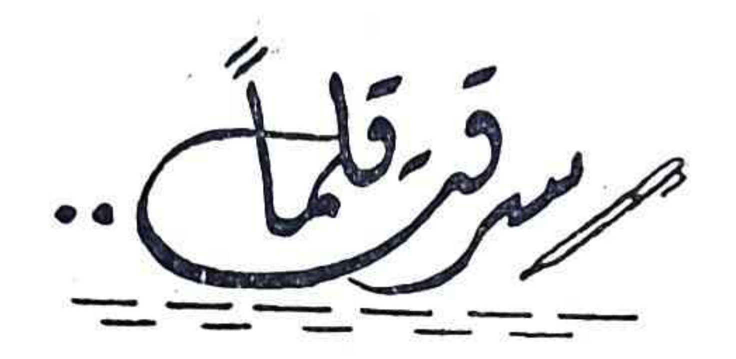
أول درس إنجليزي

كنت من محبي لعبة كرة القدم وفى وقت من الأوقات أسست فريقاً بجدة ، وكان والدى يمنعنى من اللعب خشية الحوادث والكسور وخوفا من المشاكل الخلقية ، ومع ذلك كنت ألعب على غير علم منه وأراعى الحضور إلى البيت قبل المغرب وهو موعد حضوره والتأكد من حضورنا جميعا .. إلى أن حدث ذات يوم أن كانت عندنا مباراة فتأخرت فى الحضور إلى البيت وأخذت أفكر فى الاعتذارات التى سأقدمها للوالد خاصة وأن الساعة كانت حوالى الثانية عشر والنصف وهذا تأخير خطير يعتبر جريمة فى عرف الوالد . وقاربت البيت ولم يسعفنى التفكير بعذر مشروع .. فوجدت خادما بعثه والدى للبحث عنى .. وهنا فقط جاءتنى فكرة لطيفة .

كان والدى يردد لى بين حين وآخر وصول الأستاذ « على عيد » من الهند وأنه سيأخذنى يوما ما إلى مدرسته الليلية لتعليم اللغة الإنجليزية .. ومنذ بدأ الوالد يذكر لى ذلك وأنا أتهرب منه وأرجو الله ألا يأتى ذلك اليوم الذى ينفذ فيه هذا الوعد أو على الأصح الوعيد . فكفانى طامة النهار فى مدرسة الفلاح ولا داعى لإضافة طامة ليلية أخرى .. ولكنى أردت الخلاص من العلقة فى تلك الليلة بأى وسيلة ولو كان فيها خراب بيت بالنسبة لى .. إذن فأمرى لله واتفقت مع الخادم على أنه

يخبر والدى أنه وجدنى متجهاً إلى بيت الأستاذ على عيد فأعادنى للبيت .
واستمع الوالد إلى كلام الخادم وبعد أن كان الشرر يتطاير من عينه توجه إلى حانيا مسروراً من هـــذا الولد النجيب الباحث عن العلم والمعرفة .. وأنب الخادم على غباوته ثم تمنى لى التوفيق .. وأعادنى فى التو إلى المدرسة الليلية .. وهكذا كنت كالباحث عن حتفه بظلفه وبدأت على الرغم منى أول دروسى الإنجليزية ، وكان حضورى إلى هذه المدرسة الليلية ستاراً يعفينى من الحضور قبل المغرب فكنت أتمتع بلعبتى المفضلة ثم أتجه وأنا مطمئن إلى المدرسة الليلية .

وتحضرنى ذكرى واحدة عن هذه المدرسة .. حصلت فى تلك الأيام -وكنت فى حوالى الثالثة عشرة من عمرى- على كتاب يعيد العجوز إلى عهد الصبا . . فكنت اقرأ صفحاته فى هذه المدرسة فى الفترات التى كان الأستاذ على عيد يدرس لغيرى من التلامذة . . ولمحنى الأستاذ .. وصادر الكتاب بعد أن وبخنى .. وطبعا كان هذا الكتاب فرحة بالنسبة له لأنه من الصعب العثور عليه .. وكنت أتخيله وهو يقرأ هذا الكتاب ويتمتع بطرائفه .. وقد تظاهر بغيرته على الأدب والأخلاق .. وبقى الكتاب معه حتى يومنا هذا ، ترى هل يقرأ هذه المذكرات فيعيده إلى بعد أن أخذ منه مافيه الكفاية من درس وموعظة حسنة ؟ .



كانت الدراسة فى مدرسة الفلاح لا تنقطع طوال العام إلا فى شهر ذى الحجة لتبدأ فى العاشر من المحرم كل عام .

وكنا نحضر للدراسة صباحا وبعد الظهر صيفا وشتاء ما عدا شهر رمضان حيث كانت الدراسة لا تستأنف بعد الظهر .. وكان الوالد يتحسر على هذا الضياع فى شهر ذى الحجة فيأخذنى إلى مكتب تجارى كان يعمل به أحد أقربائى لتحسين خطى وحسابى وغير ذلك .. فكنت أقتبس من قريبى ما عنده من خبرة خطية وحسابية إلى أن فكرت يوما فى اقتباس شىء أهم بلغة أهل اليمن .

كنت فى العاشرة من عمرى وكانت أقلام الجيب فى ذلك الوقت قليلة وربما كانت أقلام الجيب فى جدة تكاد تكون معدودة وأصحابها معروفون .. توكلت على الله ووضعت أحد أقلام المكتب فى جيبى على سبيل الاقتباس .. وفى اليوم الثانى اكتشفوا ضياع القلم وكنت قد وضعته فى البيت فى مكان أمين .. وبعد سلسلة من التحقيقات مع موظفى المكتب وخدمه قرروا عمل المندل .. وتبع ذلك القيام بحرب نفسية حامية وليست باردة .

وأخذت أفكر فى الموضوع جديا فالمندل لا يخيب .. ووجدت

من الحكمة تجنب عصا الوالد فى هذه المناسبة الكريمة ؛ فأخذت القلم ذات صباح ـ وكنت أخرج لشراء مقاضى الفطور ـ وذهبت إلى المكتب فوجدته مفتوحاً ووضعت القلم فى مكانه .. وخيل إلىّ أن أحداً لم يرنى .. وهدأت المسألة .. وبقيت زمنا طويلا مؤمنا بفائدة المندل وأنه هو الذى جعلنى أعيد القلم ، مع أنى تبينت فيما بعد أن المندل ما هو إلا مؤثر نفسانى يؤثر فى الضعفاء فيجعلهم يعيدون ما سرقوه اعتقاداً منهم بأن أمرهم مكشوف حتما .

ولكن ذلك كان درسا طيبا لى فامتنعت عن الاقتباس منذ ذلك الوقت . وكنت أتخيل حادث القلم وما سببه لى من قلق وآلام نفسية فى ذلك الوقت فيمنعنى ذلك عن التورط مرة أخرى .

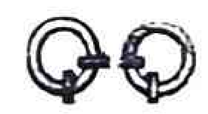
حبل من الله وحبل من الناس

رحم الله عمى فإن له معى موقفين لا ينسيان . كانت المرة الأولى وأنا فى مدرسة الفلاح بجدة وكان عندنا مدرس خط اسمه «خير الدين» وكان بينى وبين الخط عداء تقليدى لم يكن خطى يقرأ ولم أكن أعمل الواجبات المنزلية .

وذات يوم طفح الكيل بالمدرس وأعطانى علقة فى [الفلكه] بلغت أكثر من خمس وعشرين خيزرانة . . وشكوت الأمر لوالدى فى حضور عمى . . فأما الوالد فقد قابل الخبر بالاستحسان التام ، وأما عمى فقد تحمس وكاد أن يذهب إلى المدرسة ليضرب المدرس الجبار . . وبعد جدل عنيف بينهما اقتنع الوالد وكتب لمدير المدرسة . . وأعفيت بعدها من حضور حصص الخط حتى جاء أستاذنا الشيخ طاهر الكردى ولنا معه مذكرات سنكتبها فيما بعد .

أما الموقف الثانى الخالد لعمى فقد كان وأنا طالب بمدرسة تحضير البعثات . . كنت قد انتهيت من السنة الأولى وأصابنى ملل من استئناف الدراسة وفكرت فى التوظف أو العمل فى المحاماة أسوة بالوالد . وفاتحت والدى فى الموضوع فى حضور عمى أيضاً . أما الوالد فقد استنكر الأمر وأما عمى فقد استحسنه وأخذ يضرب الأمثال لوالدى بالأثرياء الأميين وبين له أن العلم ليس ضروريا وعدد له مزايا الجهل وأمثلته

الناطقة . . ولكن الوالد لم يقتنع واستأنفت الدراسة . . وحرمت من نعمة الأمية . من يدرى ! ربما لو استمع الوالد لنصيحة عمى لأصبحت اليوم من أصحاب الملايين الذين يشار إليهم بالأصابع المطعمة بالماس .. أو من أصحاب البنوك الذين يشار إليهم بدفاتر الشيكات وخطابات الاعتماد .. على حد تعبير أولئك الذين يقولون إن العلم والغنى عدوان لا يجتمعان ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه . ومرة ثانية : رحم الله عمى .



علمني أبي

كان والدى أستاذى الأول فى الإنشاء . . كان خطه ولا يزال لا يقرأ فكان يكلفنى بتبييض مذكراته وقضاياه وعرائضه وكان يكلفنى بنسخ الأنظمة التى تنشر فى الجرائد فى دفتره الخاص . . ومن أسلوبه الإنشائى تعلمت الكثير . . ومن مكاتباته عرفت كثيراً من المسائل الفقهية . . وعنه تعلمت قاعدة هامة استفدت منها كثيرا فى حياتى العملية ولا أزال . . كان بيتنا أشبه بمحكمة : يأتى الشاكى أو الشاكية - ويتكلم ويتظلم ويذرف الدموع ونتحمس جميعاً لشكواه حتى نكاد نبطش بخصمه لو وجدناه . . ولكن والدى لم يكن يتأثر إطلاقاً . . بل كان يقول للشاكى عندما ينتهى من شكواه [هذه نصف الحقيقة على الأقل وسوف نستمع للطرف الآخر عسى أن نصل إلى الحقيقة كاملة] . . وفعلا كان يتحقق ظنه كثيراً . . وقد وعيت هذه الفكرة فلست الآن أصدق طرف الخصومة ولا أصدر حكمى على شيء حتى استمع إلى جميع أطراف القضية . . وعلمنى والدى الصبر على الشدائد . . كنت موضع سره ومنذ العاشرة من عمرى كنت أمين صندوقه فى حضوره وسفره فكنت أعرف دائما أحواله الاقتصادية وما يعانيه من شدة أحيانا . . وكان يلذ لى التنقيب فى أوراقه الخاصة فى غيابه . . فوعيت كثيرا من دروس الحياة وغيرها ومن الصبر على

الضائقات ، ومن الكفاح فى سبيل الحق والعقيدة كما تعلمت أن أمد رجلى على قدر فراشى ، وألا أمد يدى لمخلوق ما وما أكثر مايعيه الإنسان فى الحياة من مدرسته ومن حياته نفسها ولكن المدرسة الكبرى هى مدرسة الوالد لو أعطيناها حقها من العناية والدرس .



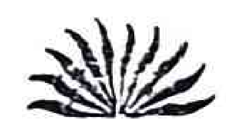
بركاً على الركب

استولت الدهشة علينا جميعا نحن طلاب السنة السادسة الفلاحية ونحن نرى أستاذنا الوديع الحبيب الشيخ طاهر الكردى يدخل علينا وفى يده عصا ؛ وأحسنا الظن فى البدء فقلنا لعلها عصا يتوكأ عليها أو على الأصح تتوكأ عليه فقد كانت طويلة جداً ولكنا فوجئنا بالأستاذ وهو يطالبنا بواجبات الخط ومن لم يقدمها يخاطبه قائلا [بركا على الركب] ثم ينهال على رجليه بالضرب الشديد إلا إذا استطاع التلميذ أن يعرب هذه الجملة إعرابا صحيحا وكان ذلك لى هو الفرج فقد كنت جيدا فى النحو. ولكنى أعتقد أن الذى شفع لى أكثر هو صلة الصداقة التى تربط الأستاذ بكثير من أفراد عائلتنا . وكان الأستاذ طاهر من أحب أساتذتنا إلينا لولا تلك الحادثة التى طرأت عليه وحرنا فى تعليلها فما أسباب ثورة الأعصاب المفاجئة والأستاذ ليس متزوجا وليست لديه عوامل أخرى لإثارة الأعصاب ؟ كان يدعونا دائماً لداره وفى سنوات الفلاح الأخيرة كنا نساعده فى نسخ كتابه الأول عن الخط العربى ثم أصبحت بينه وبين طلابه صداقة عميقة الجذور كنا فى البعثة بمصر فدعانى مع الصديق أسعد جمجوم إلى غرفته بالأزهر وأكلنا عنده يوماً [مختوم بامية] من صنع يديه وهو طاه ماهر . واكتشفنا عند ذاك أنه أستاذ من طلاب

الأزهر السابقين وأن غرفته محجوزة فى الأزهر ينزل بها كلما سافر إلى مصر وقضينا معه ليلة ممتعة بالأزهر مع رئيس الرباط اليمنى ـ رحمه الله.

وعلى ذكر غرف الأزهر المحجوزة فى الأروقة أذكر أن أصدقاءنا المشائخ بأبصيل والكعكى والمرزوقى والفدا والمنيعى لاتزال لهم غرف محجوزة فى أروقة الأزهر الشريف ينزلون بها كلما سافروا إلى مصر ويتمتعون بالجراية اليومية.. ترى لماذا لم نلتحق بالأزهر لنتمتع بهذه الإقامة الأبدية والجراية السرمدية؟

وعلى ذكر الجراية أذكر أن بعض زملائنا فى البعثة بمصر من طلاب الأزهر كانوا يتنازلون عن هذه الجراية للموظف المشرف على تسجيل الحضور والغياب نظير تسجيلهم بين الحاضرين. ولا أريد تسميتهم فإن بعضهم يشرف على تربية هذا الجيل المسكين..



العصا فى ذمة التاريخ

كنت فى السنة الثانية بمدرسة الفلاح عندما دخل علينا وكيل المدير وبيده عصاه التقليدية واستدعانى مع زميلين آخرين وخرجنا نتعثر فى خطانا .. فوجدنا بعض عمالقة الطلاب واقفين فى الانتظار .. وسرعان ما وضعوا فى [الفلكة] واحداً واحدا وطلب منا الوكيل أن نضربهم لأنهم شردوا من المدرسة .. فوجمنا وخفنا أن نضربهم فينتقموا منا عند الانصراف .. ولكن الوكيل هددنا بالضرب إن لم نضربهم ضربا شديدا نكاية فيهم وزجراً لهم .. ونفذنا الأمر تحت التهديد .. وكان الوكيل شديداً لدرجة أنه فى ساعات بعد الظهر عندما تنتهى عمليات الضرب الصباحية ولا يجد ما يسد به الفراغ يطلب دفتر الغياب ويستدعى التلاميذ الغائبين فى الأيام السابقة ويتسلى بضربهم .. وهكذا كان أول من اخترع نظرية قتل الفراغ .. وكان يصيبنا الكثير من تطبيق هذه النظرية فى المدرسة .. كان يلذ لى حضور المصارعات بين أقطاب المصارعة الفلاحين ، التى كانت تتم كثيراً عقب الانصراف .. ولم يكن دورى فى المصارعات بسيطا كما قد يتوهم البعض . فقد كنت أحمل ثياب المتصارعين أثناء المصارعة .. وكنت أدفع ضريبة هذه البطولة من عصا الوكيل التى لم تكن ترحم .. وكان أقطاب المصارعة والهرب يستعدون للضرب بوضع روث البقر على أرجلهم حتى تخف

شدة الضرب عليهم . وكنت أتلقى الضرب ببطولة ودون استعمال روث البقر .. وكثيراً ما قضيت ساعات باركا أو محروما من الغذاء أو الفسحة .. ولكن للبطولة ثمن يجب أن يدفع والآن انقرض عهد العصا أو كاد وتسللت أساليب التربية الحديثة إلى المدارس .. وعندما عملت مدرسا فيما بعد استغنيت عن العصا ولكني وجدت فيما بعد أنها أجدى وسائل الإقناع التي لا يستغنى عنها في المدارس فعدت إليها . . !
ويجد طلاب اليوم وسائل النشاط الرياضي في المدارس فينصرفون عن الشقاوة ويشغلون أوقات فراغهم بما ينفعهم وتصبح العصا في ذمة التاريخ .

أضعت البرنجية

كان ترتيبي الثانى فى التخرج فى مدرسة الفلاح بجدة ، ولذلك قصة فيها عبرة . . كان التقليد السائد فى مدرسة الفلاح ألا يتغير الأول أبداً خاصة إذا كان أكبر سناً من زملائه وهادئاً عاقلا ؛ يكتب اسماء المشاغبين وغير الحافظين . . وجاء الامتحان النهائى فى السنة الأخيرة . . وجلسنا لامتحان الحساب وكنت متفوقاً فيه وكان أول فصلنا يجلس إلى جانبى فأمليت عليه جميع الأجوبة الصحيحة . . فاحتفظ بالبرنجية عن جدارة وأخذ ١٥٠ من ١٥٠ فى المجموع النهائى بينما أخذت ١٤٨ فقط واضعت النمرتين فى الخط وهكذا فقدت البرنجية بفعل يدى. وبقيت هذه ذكرى أليمة تحز فى نفسى كلما ذكرتها . . هل كنت على حق وهل يندم الإنسان على مثل هذا الإيثار؟..ومما يذكر أن زميلى قد أخطأ فى أجوبة علم الصحة وكان الاختبار شفهياً .. وكان من الممكن أن نتساوى أو أتفوق عليه .. ولكن دموعه وتقاليد الفلاح العتيدة وقفتا إلى جانبه ورجحته فى آخر لحظة .. حقاً لقد كان لمدرسة الفلاح تقاليدها وبعض متاعبها .ولكن لاشك أنها كانت اللبنة الأولى فى بناء تلاميذها من حيث اللغة العربية والعلوم الدينيه . . لقد حفظنا ألفية ابن مالك متنا وشرحا وحفظنا [معنعن كعن سعيد عن كرم] ودرسنا أصول الفقه وكنا نردد كثيراً من العلوم كالببغاء .

ولكن رواسب كثيرة من هذه العلوم بقيت وكانت حجر الأساس فى حياتنا فيما بعد .

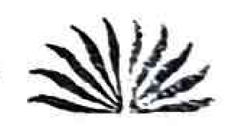
ليلة في الدهليز

كنت طالباً بمدرسة تحضير البعثات وجاءت الأجازة الصيفية وذهبت لقضائها عند أهلى فى جدة .. وكانت مدرسة الفلاح لا تعطل .. وصادف سفر أستاذ العلوم الرياضية بعد انتهاء خدمته .

فطلب المرحوم الشيخ محمد صالح جمجوم من والدى أن أتولى تدريس هذه العلوم فى فترة الأجازة . . فقمت بهذه المهمة وأنا حديث السن يكاد تلامذتى أن يقاربونى فى السن .. وأحسست أنى قد تطورت وأنه لابد لعلاقتى بالوالد أن تتطور أيضاً .. فأخدت أتمتع بالفسح ولا أتحرج عن التأخر بعد المغرب .

ودعانى أصدقائى إلى نزهة بحرية [بالباى] لصيد السمك فأذن لى والدى وقضيت ليلة ممتعة .. فلما دعونى مرة أخرى فرحت واستأذنت من والدى فأذن لى أيضاً .. ولكننا فى هذه المرة عدنا بعد منتصف الليل وليس فى الصباح كالمرة السابقة .. عدت إلى البيت فوجدت باب البيت مقفلا ولكن كان هناك حبل متصل بالمزلاج يتدلى للخارج ففتحت الباب ودخلت .. ولكن باب الدرج كان مقفلا من الداخل .. وفكرت فى طرق الباب ولكنى خفت أن يصحو الوالد منزعجاً ويتنبه إلى عودتى المتأخرة ويندم على إذنه لى ، ويتطور الأمر إلى فصل جديد من فصول الضرب الشيقة .. فآثرت الجلوس فى الدهليز على الأرض ولم يكن هناك

نور ولا كهرباء .. وكانت الفيران تداعبنى وتتراقص من حولى مرحبة فرحة .. وغلبنى النوم فتوسدت بساط الرحمن .. ولكن أبى النوم أن يأتى فى ذلك الجو القائظ ومع قطعان الفيران المرحبة .. وقضيت الليلة ساهراً حتى أذن الفجر فقمت إلى المسجد القريب وأديت صلاة الفجر .. وبعد الصلاة أخذت مصحفاً وأخذت أتلو ماتيسر من القرآن على روح تلك الليلة الشهيدة . . وعندما تأكدت من فتح الأبواب عدت متسللا إلى المنزل . . ترى كم من أبناء هذا الجيل يخشون آباءهم إلى هذا الحد ؟ .



المعلقة .. !

كان ذلك فى شهر ذى الحجة ١٣٥٥ وكنت فى السادسة عشرة من عمرى، وقد نلت شهادة الفلاح النهائية وتنفست الصعداء . وأخذت أفكر فى حياتى العملية المقبلة وشعرت أننى قد بلغت مبلغ الرجال ولكن خاطراً واحداً كان ينغص أحلامى اللذيذة . . فقبل تخرجى بسنتين أوفدت الحكومة إلى مصر بعثة للالتحاق بدار العلوم والجامعة الأزهرية وهى التى من ضمن أعضائها الأساتذة : السويل وعبد الجبار والفطانى . . وتمنى الوالد وقتها لو كنت ضمن المبعوثين ولكنه كان يريد أن أنتهى من دراسة الفلاح . وهكذا مرت الأزمة ولكن الغيب كان يدخر لى أزمة أخرى . . فبعد تخرجى فى مدرسة الفلاح ظهر فى الأفق شبح وافد جديد وهو تفكير المعارف فى افتتاح مدرسة تحضير البعثات بمكة . . وكان الوالد فى مكة عقب الحج وقدم إسمى للمعارف دون أخذ رأيى فى هذه المخاطرة الشاقة واستدعانى قريبى المشرف على التعليم بجدة وحمل إلىَّ هذا النبأ الفظيع وخطاباً من الوالد عن الاستعداد الواجب علىَّ لمواجهة الحالة الجديدة عدت إلى البيت وأنا مكتئب وكان ضمن خطاب الوالد شراء قماش لى وإعداد ثياب جديدة للمدرسة واشترينا القماش وأخذت الوالدة تخيط الثياب . وكان لى أخ صغير هو الآن طالب بالجامعة .. الأخ يلعب فى الغرفة فداس على القماش والثياب الجديدة فضربته .. وإذ بالوالدة

الوديعة التى لم تضربنا إلا مرات معدوات والتى كانت تضمد جراحنا بعد [علقات] الوالد ، إذا بها تنهال على ضرباً باليد وبالمروحة .. أكلت العلقة وأنا ذاهل وهكذا استدبرت عهداً واستقبلت عهداً آخر بعلقة كانت ختام العلقات .



الحج على الحمير

رحم الله زمناً مضى لم تكن السيارة قد وطدت مكانها بعد ولم يكن الراديو والمسجل والكهرباء وغيرها من المخترعات الحديثة أشياء معروفة لنا .. إن شباب الجيل الحاضر أسعد حالا منا وأحسن مستقبلا .. إنهم يفتحون عيونهم على الراديو وغيره من وسائل الثقافة الحديثة التى تساعد على تنمية مداركهم مع المدرسة . . أما نحن فقد عشنا أيامنا الأولى فى زمن الحمير . . حججت وأنا صغير مرتين على الجمال وقطعت الطريق من جدة إلى مكة فى يومين وعرفت [الوسك] و [العصم] وغير ذلك من المصطلحات التى انقلبت مؤخراً إلى موديلات حديثة من السيارات الأمريكية .

وعندما أدركت سن البلوغ اشتقت شوقاً كبيراً إلى أن أحج حجة الفرض .. فكيف أنقل هذا الخبر إلى والدى وأنا الذى لم أكن أجلس فى مجلسه أو أرفع نظرى إليه .. وكان يحج فى كل عام وأنا معه ولكنه لم يكن راغباً فى الحج فى ذلك العام بسبب الأحوال المادية . . ووسطت الوالدة فى نقل هذه الرغبة إليه فبعثنى مع عمى للحج وحملتنا السيارة من جدة إلى مكة وفى مكة كان ينتظرنى حماراً لنا يجر برميل الماء طول العام .. وتصور مثل هذا الحمار القوى يحمل حدثاً صغيراً . . لم أستطيع أن أكبح جماحه وغضب عمى ـ رحمه الله ـ لأنى أسبقه وهو المعقود

له الرئاسة وكانت مشكلة لم أهتد إلى حل لها ولم يهتد الحمار الملعون . .
أما الآن فإن أولادنا يتدربون على قيادة السيارات وليس لواحد منهم
أن يفخر بأنه عاش يوماً فى زمن الحمير .. لقد كان الحج فى تلك الأيام
متعة وفسحة وكانت له ذكريات شيقة .. وكانت الحمير تنقلنا من مكان إلى
مكان دون توقف وانتظار [السرا] ساعات طويله ممتعة بحرية المرور
البرىء .. إننى أعمل الآن عملا يتطلب سرعة الانتقال فى الحج ولكننى أقف
ساعات فى انتظار [السرا] فى سيارتى . . وأنا متحرق شوقاً لزمن الحمير
وانى أفكر فعلا فى اتخاذ هذه الوسيلة السريعة المريحة وأتردد فى ذلك كل
عام . . فمتى أستطيع تحقيق هذه الرغبة ؟ لعلنى لو وجدت الحمار لتشجعت
على تنفيذ الفكرة . فهل أجده ؟.

ليفة بادكوك

عشنا سنوات لذيذة فى القسم الداخلى بمكة كانت أحوالنا المادية جميعاً متواضعة ؛ العشرة الريالات تكفى الواحد منا أكثر من شهر أو شهرين ، ولم يكن طريق جدة معبداً فكنا لا نزور أهلينا إلا كل بضعة شهور فى الأجازات فى سيارة البريد فقد كانت وسيلة المواصلات الوحيدة تقريباً . وكان الصديق الأستاذ محمد بادكوك من أظرف الشخصيات التى زاملناها فى تلك الفترة .

أتت والدته ـ رحمها الله ـ إلى مكة فى مبدأ دخولنا المدرسة وكلمت الشيخ عريف المشرف عليه طالبة التوسط لدى السيد طاهر الدباغ مدير المعارف وقتئذ ليسمح لها بالذهاب إلى القسم الداخلى بمدرسة تحضير البعثات حتى تتأكد من راحـــة ابنها وتعلق له الليفة وتدق له مسامير الناموسية وتعلق له المنشفة وترتب شنطة ملابسه . ولم يفلح الشيخ عريف فى إقناعها إلا بعد جهد كبير وكانت ـ رحمها الله ـ من السيدات المتحدثات تذهب خصيصاً لزيارتها فى جدة مع الأخ محمد فتأخذ فى إلقاء محاضراتها وأحاديثها من وراء ستار . ونأخذ نحن فى التحريش بينها وبين ابنها ونروى لها عنه بعض أشياء ولا نخرج إلا وقد وقع بينهما ما صنع الحداد وما لم يصنع .

ومن طرائف الأستاذ بادكوك فى مكة أن كان شخص مخبول يتردد

على دار البعثات فى المنيلة ويأخذ فى مداعبته والتباسط معه وفى أحد الأيام كان البادكوك يقف على باب الدار وقد ارتدى أفخر ملابسه ونظاراته فمر الشخص المخبول وألقى حفنة من التراب على وجه البادكوك ثم تبين المخبول شخصية البادكوك فاعتذر له قائلا : لا مؤاخذة حسبتك شبنكش [يقصد الشيخ حسين شبكشى للشبه الذى بينهما] فلم يكن من البادكوك إلا أن قال له : [وافرض إنى شبنكش ترمينى بالتراب] ثم استغرق فى ضحكة عالية من ضحكاته المعتادة واستمر فى هذه المناقشة الطريفة دون أن يتأثر من هذا الحادث .

النجاة ... النجاة

المتداول بين الناس أن التلاميذ يجننون أساتذتهم . والناس يقولون على سبيل المداعبة أو المبالغة . ولكننا - كتلاميذ - وفقنا فى يوم من الأيام لنجنن أحد أساتذتنا جنونا حقيقيا انقطع بعده عن التدريس .

كنا فى مدرسة تحضير البعثات والغرفة التى خلف فصلنا بها المعمل الكيماوى وفيه مواد ملتهبة سبق أن التهبت مرة وكادت تحدث حريقاً . وكان المدرس يلقى علينا درساً فى النحو العربى عن الاختصاص . وهو مدرس ممتاز متمكن من علمه تماماً ولكن كان يقابله تلاميذ متمكنون من شيطنتهم أيضاً .

كانت هناك فرقة لا تكف عن الضحك بسبب وبدون سبب . وضرب الأستاذ مثلا للإختصاص [نحن معاشر العرب الخ] فسألناه عن مفرد معاشر . ثم أخبرناه أننا فى الزواج نستعمل المعاشر وأن مفردها معشرة .. ثم تطرق البحث إلى سبب تسميتها معشرة فقال الأستاذ : ربما لأنها تكفى لعشرة أشخاص يجلسون حولها .

وهكذا تطور البحث .. الأستاذ جاد ونحن هازلون وفرقة الضحك - وكنت من أعضائها البارزين - تؤدى واجبها على الوجه الأكمل .. وقطع الأستاذ المناقشة صارخا [النجاة النجاة . أخرجوا سريعا]

وكان هو أول الخارجين فتبعناه نجرى ظانين أنه رأى شيئاً فى المعمل قد التهب . ولكننا لم نجد شيئاً ، ونزل الأستاذ إلى غرفة الادارة وحمل شنطة الكتب وخرج ولم يعد بعدها . وأوقعنا مديرنا السيد إسحاق عزوز فى ورطة فقد عرف عن الحادث واحتار فى الشخص الذى سيخلف الأستاذ ويكون عنده الاستعداد لتاقى نفس المصير وبعد هذا الحادث بمدة يسيرة كنا فى الحميدية نودع سمو الأمير فيصل المعظم - شفاه الله - وألقى أحد المدرسين قصيدة لم تكن مناسبة للمقام .

وكان أستاذنا حسين الحوت حاضرا وهو شخصية طريفة وكانت لنا معه مداعبات ومناوشات . فقال الأستاذ الحوت بعد عودتنا إلى المدرسة [ماهذا البلد إن فيه كثيراً من المجانين] وأشار إلى الشاعر وإلى الأستاذ الذى سبقه فقلت له على الفور : [ولكنهما ليسا من أهل هذا البلد] فكانت نكتة لاذعة تقبلها ضاحكا وضحك لها الزملاء .

فقد كان الاثنان اللذان عناهما من بنى وطنه .



نزهة فواكه فتوبة

كان الأستاذ عبد الرؤوف الأفغانى مدرس اللغة الإنجليزية من ألطف الشخصيات : وفوق إلمامه الواسع باللغة الإنجليزية كان عالما جليلا ذا اطلاع واسع ؛ وفى فترة من الفترات غاب مدرس الرسم فقام بتدريس هذا العلم لنا خير قيام مع أنه فن قائم بذاته له أصوله وقواعده . كان بعض زملائنا قليلى الحفظ ضعيفى الذاكرة فوصف لهم وصفة هندية لطيفة تتلخص فى أن يحلقوا رؤوسهم ويضعوا عليها [زيت لبوب سبعه] ما أحوج الإنسان الآن لاستعمال هذه الوصفة لولا ما يلزم لها من الحلاقة [الزلبطة] .

وذات يوم اقترح علينا الأستاذ أن نقضى يوم جمعة فى بستان الزاهر بمكة وأخذنا نعد للأمر عدته وأوصانا أن نشترى تفاحة بأكملها لكل عضو فى الرحلة وكان حصول الواحد على تفاحة كاملة يعتبر غنيمة فى ذلك الوقت .. وبين لنا أهمية ذلك فالمثل الإنجليزى يقول (تفاحة فى اليوم تغنيك عن الطبيب) .

An Apple Aday Keeps Adoctor Away

وفى يوم الجمعة المحدد ذهبنا إلى البستان فرحين مرحين والأستاذ يشرح لنا كثيرا من خصائص النباتات .. ووجدنا رجلا يستحم فى بركة البستان فضايقناه حتى خرج لأننا كنا نريد البركة خالصة لنا .

ولم نكن نعرف أن خروجه سيوقعنا فى أزمة . طلبتنا رئاسة القضاء مع أستاذنا فى اليوم التالى لأننا لم نصل الجمعة . ولم نهتم للأمر كثيراً فى البداية ولكن أستاذنا كان يخرج فى اليوم الواحد عدة مرات لمقابلة المسئولين ويعود ليفضى إلينا بنتيجة جهوده .

فمرة مثلا قال للمسؤلين إن السبب فى عدم نزولنا للصلاة أن [سيارة حامد هرسانى خربانة] وهى السيارة التى استعملناها فى الرحلة وأخذ يلقننا هذه الحجة لتتفق كلمتنا .. وأخيراً أحيلت القضية إلى الشرع ووكلنا الصديق الهرسانى وكالة شرعية لحضور القضية .. ولا أذكر الآن سر اختيارنا له .. ربما لأننا كنا صغاراً وكان هو أكبرنا سناً .. وأخيراً حكم القاضى بتتويبنا وأخذونا يوماً مع أستاذنا إلى مركز هيئة الأمر بالمعروف المجاور للحرم بمكة وتبنا واحداً واحداً .. وخرجنا ونحن لا نصدق أننا خلصنا من الورطة بهذه السهولة .

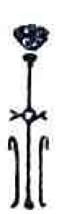
ولكن الفضل يرجع إلى براعة المحامى وإلى سيارته [الخربانة] وإلا لأصبحنا الآن من أرباب السوابق .

المدير العصري المحافظ

الأستاذ السيد إسحاق عزوز رجل فاضل ربى أجيالا من أبناء هذه البلاد ، وهو رجل جمع بين المحافظة على التقاليد العربية والإسلامية وبين الروح العصرية المتحررة .. كنا فى القسم الداخلى بمدرسة تحضير البعثات وكان يأتى ليوقظنا لصلاة الفجر .. وعندما ألفنا فرقة الكشافة بالمدرسة كان يرتدى معنا ملابس الكشافة ويمر مع الفرقة فى الأسواق دون أن يتحرج أو يأبه لكلام الناس .. وكنا نجلس فى الفصل على مقاعد قطنية وننتهز أوقات الفسح لنتضارب بهذه المقاعد . . وكنت يوماً أتضارب مع الصديق السيد أحمد شطا فرميته بالمقعدة فانحرف عنها وكان السيد إسحاق داخلا الفصل للتفتيش ، فإذا بالمقعدة تصيبه فى وجهه .. وأكلها السيد إسحاق ولم يتكلم وخشيت أن تحدث عواقب لهذا العمل ولكن الحادث مر بسلام وتقبله السيد إسحاق بروح رياضية ممتازة .

والسيد إسحاق خطيب رائع ـ كثيراً مايلقى الخطب فى المناسبات فيأخذ بمجامع القلوب بأسلوب بسيط مؤثر .. وكان يفاجئنا كثيراً أثناء الدروس . نلتفت فإذا هو جالس فى الصفوف الأخيرة يحضر الدرس ويراقب أعمال المدرسين .. وعندما ترك مديرية مدرسة تحضير البعثات فيما بعد أقمنا له حفلا كبيراً بالمدرسة لتكريمه حضره رجال العلم والأدب فى مكة . . إن كل تلاميذ السيد إسحاق يعتزون به وقد أصبحوا

أصدقاء له . . يفخرون بصداقته . . ولكنه كصديق يختلف عنه كأستاذ فإن له مع أصدقائه مقالب وتحريشات . . ولذلك فإنهم يأخذون حذرهم دائماً من مقالبه وتحريشاته .



صلاة الميت الغائب

على أثر نشر مذكرتى عن ليفة [بادكوك] اتصل بى تلفونياً وذكرنى بموضوع [صلاة الميت الغائب] ووعدنى بأن يبعث إلىّ بمجموعة من المذكرات لأنشرها وها أنا ذا فى الانتظار ..

ولكن البادكوك وحده عبارة عن مذكرات ولو أردت الاسترسال فى مذكراتنا معه لاضطررت لفتح باب جديد فى البلاد السعودية بعنوان [مذكرات مع البادكوك] أو [البادكوكيات] .. ولذلك سأحاول الاختصار ..

كنا فى القسم الداخلى بمدرسة البعثات ؛ وبعد أن أفطرنا أخذنا نستعد للنزول إلى الفصول الدراسية وأخذ بادكوك يلمع نظاراته ويمضغ فوفلته .. ودخل علينا ساعى البرقيات يحمل برقية لبادكوك وفضها فإذا فيها خبر وفاة والدته والبرقية موقعة من محمد على أبو داود بجدة .. فذهلنا جميعاً لهذا النبأ ولكننا واسيناه بأن البرقية لم ترد من أحد أقاربه حتى يتأكد .. ولكن محمد على أبو داود زميل أخيه فى العمل وفى حكم القريب ولذلك لم تنفع هذه المواساة ولم يكن الاتصال التليفونى بجدة ميسورا كما هو الآن .. أخذ البادكوك يبكى ونحن معه وأساتذته وزملاؤه يعزونه .. وأخذ الأستاذ عبد الرؤوف الأفغانى يلقى عليه المواعظ الدينية والآيات مثل (إنك ميت وإنهم ميتون) و(كل نفس ذائقة الموت)

وغيرها .. واستأجر الشيخ العريف له سيارة إلى جدة بعشرة ريالات بالوفاء والتمام وكان هذا مبلغاً باهظاً فى ذلك الوقت .. سافر البادكوك إلى جدة قبيل الظهر ولم يكن الطريق معبداً .. وقبل أن يذهب إلى البيت مر على [أمنا حواء] وسأل هناك [هل دفن أحد] فلما أجيب بالنفى ظن أنهم فى انتظاره وأسرع إلى البيت .. دخل أولا غرفة أخيه عبد الرحمن وهو أصم فسأله عن الجنازة وموعدها فأخبره أنه لم يعلم عن ذلك وأخذ فى البكاء والعويل وصعد الأخوان وهما يبكيان وعبد الرحمن أكثر بكاء وعويلا .. ووجدا والدتهما تتوضأ فانكب عليها محمد مسلماً باكياً بينما جلس عبد الرحمن على الأرض منتحباً .. وعرفت الوالدة الخبر فأقبلت على عبد الرحمن تعنفه قائلة [طيب محمد له حق وجاءته برقية وأنت ما هذا الجنان] وبعد أن سكن الروع أخذوا فى التحقيق وسؤلت إدارة البرق .. فإذا مرسل البرقية هو محمد حسين أصفهانى بمناسبة أول إبريل وانتحل إسم محمد علي أبو داود.

وفى ليلة سفر البادكوك إلى جدة صليت العشاء ثم صليت صلاة الميت الغائب على روح المرحومة .. واشتكى البادكوك وحكم على الأصفهانى بإعادة المبلغ الجسيم إلى بادكوك مع إنذاره بعدم العودة إلى مثل ذلك .. وتخاصم الإثنان طويلا وكان بادكوك إذا صادفه فى الأسواق يعرض عنه حتى تصالحا فيما بعد .. وفى تلك المناسبة نظم الأستاذ محمود عارف قصيدة فكاهية جميلة طويلة يقول فيها :

وآخر من كراتشي رآك تجرى المواطر
مشى إليك وواسى ثم جانا كيس خاطر

ويقصد بذلك الأستاذ الأفغاني

ويقول واصفاً الرحلة إلى جدة : ـ

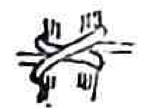
وغرزت عجــلات دفعت والعزم خائر

ويقول :

لقد جنى الأصفهانى وكم أتى من ضرائر
برقية صاغ فيهـا أكذوبة وهو شاطر

ويقول لبادكوك ناصحاً بعد أن أصابه رعب وحالة نفسية سيئة :

بادكوك أمك هـذى تجيـد طلق المجامر
فخـذ بقرش لبـاناً من عند عبد القادر[1]
وقل لهـا بخرينى من كل جنى وساحر



(١) باديب

المدير الذى غضبنا من أجله

كان فضيلة الأستاذ السيد أحمد العربى من أحب أساتذتنا إلينا .. كان مدرساً قديراً محبوبا ومديراً محبوبا أيضاً .

وهو متمكن من اللغة العربية وقواعدها وآدابها معرفة وتدريسا وحريص على التحدث باللغة العربية حتى عندما يشتم تلاميذه فكثيرا ما كنا نسمع منه [أنت لكع) و [أنت ضحكة] وهو مرب فاضل قدرة فى الأخلاق والاعتداد بالنفس والسيرة الحميدة .

كنا فى السنة الأولى بمدرسة تحضير البعثات عند ما قررت مديرية المعارف العامة نقله من مديرية مدرستنا إلى مديرية المعهد العلمى السعودى .. فغضبنا لذلك وقررنا أن نمتنع عن تلقى الدروس حتى تعدل المعارف عن رأيها ..

وأزعج هذا الخبر المعارف ورجالها .. فهذه أول مدرسة ثانوية يرونها ويحرصون عليها ومن الصعب أن تقبر فى مهدها بمثل هذه الأعمال الصبيانية .. جمع المدير الطلاب فى إحدى غرف القسم الداخلى بالمدرسة وأقبل علينا السيد محمد شطا مفتش المعارف الأول فى ذلك الوقت وكان ذا شخصية قوية ومرهوب الجانب . . وصادف عند دخوله علينا أن السيد عمر عقيل كان يلقى علينا واحدة من خطب الزعامة ..

وبعد أن حقق معنا انصرف ونحن نضرب أخماساً فى أسداس بعد

أن تبخرت خطب الزعامة وراحت السكرة وجاءت الفكرة .. وفى اليوم التالى جمعونا مرة أخرى وألقى فضيلة السيد طاهر الدباغ مدير المعارف العام خطابا فينا جمع بين النصيحة والوعيد ، ثم أعلن علينا ما قررته وزارة المعارف من فصل بعض المحرضين وخصم نمر الأخلاق على الباقين ، وعادت المياه إلى مجاريها .. وبعد بضعة شهور صدر عفو عن المفصولين .. وقد عاد السيد أحمد العربى مرة أخرى إلى مديرية البعثات بعد مدة وصادف أن كنا فى السنة الرابعة وتأخرنا عن صلاة الظهر جماعة وكان هو يؤم طلاب المدرسة وجئنا إلى مكان الصلاة وقدمنا السيد حسن شطا (إمام الطوارىء) وصلينا خلفه .. وبعد انتهاء الصلاة دعانا المدير وعد عملنا هذا مخالفة وتحديا فقرر معاقبتنا جميعا بالطرد من المدرسة مدداً مختلفة وأقفلت السنة الرابعة .. والمصيبة أنه أرسل قرار الفصل لأولياء أمورنا وبدأت شخصيا أتتبع حركات الوالد من جدة إلى مكة كما نتتبع الآن تحركات الأسطول السادس .. وتوسط المرحوم السيد صالح شطا ، والشيخ أحمد الغزاوى ـ أمد الله فى حياته ـ وقال الشيخ الغزاوى للسيد أحمد العربى : (إن لهؤلاء التلاميذ بالذات معك موقفا عندما غضبوا لك فلعل هذا يكون شفيعا لهم) .. وفعلا عدنا إلى قواعدنا سالمين .

أمير للقهوجية ... والبريد المكبوس

إنها ذكريات متفرقة عن أيامنا فى مدرسة تحضير البعثات بمكة ..
كانت أمسيات جميلة نترقبها ونقضيها فى المسفلة حيث عرفنا قهاويها وأصحابها معرفة شخصية .. وعلى مراكيز قهوة البخارى تعرفنا بالأستاذ الكبير حمزة شحاته وبدأنا نسمع أشعاره ونوادره الأدبية .. وكانت له شلة أدبية تجتمع كل يوم إلى جوار مركازنا.

وهكذا كان بدء اختراع الندوة الأدبية (مع الاعتذار للأستاذ فؤاد شاكر) .. وكان يلم بنا الإفلاس فى بعض الأوقات فنحول اتجاهنا إلى أعلى مكة حيث نذهب إلى قهوة البلدية ، وكانت تقع مكان قلم المرور الآن ، وصاحبها إسمه (أمير القهوجية) .. وهو يحب أن ينادى بهذا اللقب .. وعند دخولنا نحييه بهذا اللقب ونقدم له فروض الطاعة فلا يلبث أن يأمر بأن تكون طلباتنا على حسابه الخاص .. وكان البادكوك يأتى دائما بعدنا ..

وذات يوم طالت غيبته ونحن فى قهوة البلدية .. وأخيراً وصل وهو يلهث ، وأخبرنا أن السيد عمر عقيل اعترض طريقه فى الجودرية وآذاه .. فسحبه إلى مركز المعلاة واشتكاه وتركه محجوزاً هناك .. وبعد قليل أقبل علينا السيد عمر عقيل وهو يترنم . فقد كان ضابط مركز المعلاة صديقه وعملوا (نمرة) على البادكوك وتظاهر

الضابط بحجز عمر عقيل ولكنه تركه بعد خروج البادكوك .. هذا وقد تاب بعدها عمر عقيل ولم يطرق باباً قط للبادكوك ..

وفى تلك الأيام تم اختراع (البريد المكبوس) .. وهو اختراع نقدمه لإخواننا الذين يحضرون مؤتمرات البريد الدولية ليفاخروا به .. الخطاب العادى بقرش وربع ، ولكنه إذا كان منفوخاً يشك مأمور البريد ويزنه ويطلب أجراً زائداً فكيف يمكن إزالة الشك من مأمور البريد ونجعله يأخذ الكتاب على أنه وزن عادى . ؟ قام البادكوك بهذا الاختراع العجيب .. يكتب الكتب وجميعها منفوخة وثقيلة ثم يبدأ بعد الظهر فى عملية الكبس .. يضع الكتب تحت مقعدة قطنية ويجلس هو على المقعدة ثم يبدأ المنظر النادر ، فترى البادكوك يتحرك يمينا وشمالا ، وإلى الأمام وإلى الخلف ، وبعد نصف ساعة تخرج الكتب فى منتهى الخفة والرشاقة ..

وهكذا أمكننا أن نوجد إلى جانب البريد الجوى والبريد البرى والبريد البحرى اختراعا جديداً فى عالم البريد أطلقنا عليه اسم « البريد المكبوس » ..

الشاب الناهض

كنا قد بلغنا مبلغ الرجال ـ أو هكذا خيل إلينا ـ ونحن فى السنة الأخيرة بمدرسة تحضير البعثات .. ومع ذلك فقد كنا لا نكاد ننصرف من المدرسة حتى نبدأ فصلا جديداً من فصول الشقاوة .. كان السيد أحمد شطا يودعنا يومياً بوابل من الحجارة ، فالمدرسة فى القلعة وهو ساكن بجوارها ونحن نضطر للنزول فيتحصن هو بالجبل وتبدأ عملية قذف الحجارة علينا ونحن نجرى بمشالحنا وعقلنا ونصطدم بالمارة فى الطرقات .. وابتدعنا أيامها بدعة هد الشطاطيف متجاهلين الحكمة القائلة : (قطع الرؤوس ولا هد العمائم) .. فنضطر للجرى والتسابق ، إما للحذر من هد الشطاطيف ، أو الانتقام ورؤوسنا مكشوفة ومشالحنا وشطاطيفنا فى أيدينا .. وحدث مرة أن كانت عائلة خطيبتى ـ وكنت قد خطبت ـ فى زيارة لبيت فى القلعة وتفرجت مع عائلتها على الخطيب المحترم وهو يجرى مع العمالقة حاسر الرأس وملابسه فى يده وهو الذى يتظاهر دائماً بالأدب والتعقل وكانت ورطة .

وكنا فى السنة النهائية نأخذ درساً ليليا إضافياً فى علم الإحياء فى المدرسة الرحمانية بالمسعى .. لأن الأستاذ أحمد سليمان رشوان كان عنده جدول كامل أثناء النهار فكان يعطينا هذا الدرس ليلا .. وذات ليلة بكرنا فى الذهاب إلى المدرسة وكانت العراق قد دخلت يومها فى حرب مع الانجليز

أيام رشيد عالى الكيلانى، وسرت موجة حماسة للشعب الشقيق بين الناس.. وبحثنا هذا الموضوع فى تلك الليلة .. وتأخر الأستاذ قليلا .. ففكرنا فى تحويل الحماسة إلى حركة إيجابية فأطفأنا الأناريك وأخذنا نجرى إلى خارج المدرسة، فقابلنا الأستاذ رشوان صاعداً درج المدرسة فانزعج من هذا الطابور المبرطع ، فأخبرناه أننا أعلنا الحرب خلاص ، فزاد انزعاجه وارتج عليه ولم يتكلم ، وواصلنا جرينا وهو يصب علينا وابلا من الشتائم بعد أن عاد إلى وعيه .. ومشيت مع حسن شطا وعلوى جفرى . فقابلنا الهرسانى عند باب النبى مع زميل آخر فسألنا عن سبب خروجنا فأخبرناه أننا نتمشى لإضاعة الوقت ، وأننا عائدون إلى المدرسة، وفعلا سبقناه فى اتجاهها .. وبدلا من أن ندخل إلى المدرسة أخذنا نجرى من زقاق البيض إلى القشاشية والناس يتعجبون من هؤلاء الشحوط الراكضين ، وعدنا إلى المسعى لنقابل الهرسانى من جديد ، وكان قد ذهب إلى المدرسة ووجد الأنوار مطفأة - والأرض قفرة والمزار بعيد - .. فواجهنا غاضباً وقال : (خلاص أنا فقدت الثقة فيكم) وظللنا مدة كبيرة نتندر بهذه الثقة المفقودة حتى أذن الله لها أن تعود وأن نحظى بها مرة أخرى .

أحببت التدريس .. ولكن لله سلم

كنت وأنا طالب أتمنى أن أصبح مدرساً . ولعل هذا شعور يساور الكثيرين من الطلبة . ويعلل الناس ذلك بالنظرة التى ينظر بها التلاميذ إلى المدرس .. إنه مثلهم الأعلى فهم يقلدون حركاته وحديثه . ولكنى أعلل هذا الشعور بالرغبة فى الانتقام فالمدرس رجل قاس لا يرحم فى الواجبات وقد يضرب تلاميذه ، ولذلك يرغب هؤلاء التلاميذ فى الانتقام من تلاميذ آخرين قد يكون من بينهم أبناء مدرسيهم .

وقد أتيحت لى فرصة التدريس ثلاث مرات .. كانت المرة الأولى لفترة قصيرة فى مدرسة الفلاح بجدة فى إحدى أجازاتى الصيفية.. ودرست فى تلك الفترة العلوم الرياضية ، وكنت من المتفوقين فيها ؛ كما درست قواعد اللغة العربية ولى إلمام كبير بها ..

وأذكر أنه كان من ضمن المواد التى أسند إلى التدريس فيها مادة مسك الدفاتر التجارية . . ولكنى اعتذرت عنها ، لأنى كنت قد نسيتها وليس لدى مرجع أو دفتر قديم أقتبس منه .

وكانت المرة الثانية بعد انتهائنا من الدراسة فى مدرسة تحضير البعثات فقد تأخرنا سنة عن الابتعاث بسبب الحرب العالمية الثانية وكلفونى أنا وبعض الزملاء بالتدريس فى مدرسة تحضير البعثات لعدم إمكان استقدام مدرسين من مصر وكنت أدرس الرياضيات واللغة الانجليزية وكان

راتب كل واحد منا أربعين ريالا بالتمام وتأخر الراتب وكنت أقيم عند أقاربي بمكة . وشعرت بالغضاضة في الاستمرار في الإقامة عندهم مجاناً بعد أن أصبحت موظفاً ، فقدمت لمدير المدرسة السيد أحمد العربي خطاباً اعتذر فيه عن تدريس السنة السادسة الابتدائية ، ووضعت الخطاب أمامه على المكتب ؛ ولم أناوله له مناولة ، وكان ذلك عن غير قصد مني . فغضب وألقى على درساً في الأدب وألقى بكتابي على الأرض ظنا منه أني تعمدت وضع الخطاب على المكتب . . وهربت بعدها إلى جدة وتعللت بالمرض ، ثم عملت مدرساً بمدرسة الفلاح بجدة لبضعة أشهر درست خلالها العلوم الرياضية .

كانت أياماً سعيدة . وكان لي تلاميذ أعتز بصداقتهم ومنهم من يحتل الآن مراكز مرموقة في معظم الوزارات.وقد يذكرني بعضهم بذكريات التلمذة ولكني أتجاهل ذلك لئلا يظن الناس أني قد بلغت من العمر عتيا . لقد حققت أمنيتي لفترة قصيرة وعندما كنت أكتب في الجرائد فيما بعد أو أذيع في الإذاعة كنت أتقمص شخصية المدرس وكان يلذ لي ذلك .

ترى لو استمر عهدي بالتدريس أين كنت سأصبح الآن . ؟ وهل كنت سأحتفظ بشبابي وقواي العقلية ..؟

إن مهنة التدريس لذيذة والمدرس يشعر بسعادة غامرة وهو يقدم إنتاج عقله لبناء جيل جديد ؛ ويحس بالسرور وهو يلتقي بتلاميذه على مر الأيام .

قد يكون .. وقد يكون

إنها ذكريات متفرقة أختتم بها ذكرياتي في مدرسة تحضير البعثات .. على أن أبدأ في نشر ذكرياتي عن حياتنا في مصر ابتداء من الثلاثاء القادم .. وستكون ذكريات حافلة مليئة بالطريف والعجيب ..

كانت دار البعثات في مكة في وقت من الأوقات في قلعة جبل هندي وكان يشترك معنا في الدار المعهد العلمي السعودي والسنة السادسة الابتدائية .. وكان الأستاذ السيد أحمد العربي مديراً لهذه المدارس جميعاً .. قدمت في ذلك الوقت مشروع [اتحاد المعهدين] وكانت دائماً بيننا وبين المعهد منافسة في الرياضة البدنية وفي النشاط الاجتماعي بصفة عامه ، فكان مشروع اتحاد المعهدين يجمعنا جميعاً في نشاط اجتماعي أدبي رياضي واحدا .. وقد تحققت الفكرة وأصبح نشاطنا موحداً .

وبمناسبة القلعة أذكر أنني تركت القسم الداخلي بعد انتقالنا إلى القلعة - وكان مراقب القسم الداخلي الرجل الطيب الشيخ أسعد مامو - ودخل علينا يوماً وأسعد جمجوم ينشد :

يا عم أسـعد مامو المدح فيك حـرام

وحالا غير أسعد جمجوم النشيد عند قدوم الشيخ أسعد فأصبح :

يا عم أسـعد مامو الذم فيك حـرام

وتخلصنا من هذه الورطة ..

وقد كنت أول الناجحين فى البكالوريا وفى التوجيهية وعند نجاحنا فى البكالوريا أقيم حفل كبير فى المدرسة شرفه سمو الأمير فيصل وألقى زميلى السيد حسن شطا قصيدة نيابة عنى نالت الاستحسان وقتها .. وخرجت من الحفلة محملا بالهدايا : والكتب يحملها إثنان من التكارنه..

وفى تلك الحفلة ألقى الأستاذ الغزاوى قصيدة جميلة يقول فى مطلعها عن الطالب :

فجره ثم ضحـــاه ناشىء يهوى الحياة
حالف السهد طويلا فتشكى ناظراه إلخ

وبعد الحفلة دعانا السيد علوى جفرى إلى [قيلة] فى أرضه بحداء وخرجنا مشوقين لرؤية هذه الأرض .. فقد كان علوى كلما جاء ذكر نبات أو زهرة فى علم النبات يقول لنا : هذه موجودة عندنا فى البلاد .. ولكننا لم نجد فى بلاده إلا أرضاً قفراء فأنشدت قصيدة طويلة معارضاً قصيدة الغزاوى قلت فيها :

يومنا هذا جميل وجميل منتهـــاه
فى بلاد كال فيها علوى من ثناه
رحت فيها فكأنى وسط صحراء فلاه

إلى أن قلت :

إنه قول صحيح قولهم فيما أراه
من رأى رأى طويل خيب الله رجاه

ولن أختتم هذه الحلقة من الذكريات قبل أن أنوه بجهود

الأستاذ عمر نصيف معتمد المعارف السابق بجدة فى سبيل أبناء البعثات..

كان يرحلنا ويستقبلنا ويقضى لنا حتى المصالح الخاصة. وننعم عنده دائماً بالضيافة العامرة.. وفى أول إلتحاقنا بمدرسة البعثات كنا نراجعه للسفر إلى مكة والأمر لم يصل بعد للبريد لإركابنا فنسأله [هل نسافر غداً] ويجيبنا بجوابه التقليدى [قد يكون وقد لا يكون] وهكذا ذهبت مثلا نذكره كلما ذكرنا الأستاذ عمر نصيف .

بسم الله مجريها ومرساها

أعلن عن عزم الحكومة ابتعاثنا وقنابل الألمان تقترب من الإسكندرية قبل معركة العلمين ، وطائراتهم تتردد على القاهرة والإسكندرية .. فحزمنا أمتعتنا ، وكنت وقتها مدرساً بمدرسة الفلاح بجدة وفى حاجة للبقاء فى الوظيفة ولذلك تركتها مكرهاً لئلا يعتقد الناس: أنى أحمق .. وأقامت مديرية المعارف العامة حفلا لتوديعنا فى جدة شهده قائمقام جدة وكبار الموظفين والوجهاء . وودعنا مديرنا السيد أحمد العربى بقصيدة جميلة يقول فى مطلعها مخاطباً الباخرة التى ستقلنا :

خففى السير يافتاة البحار وارفقى يافتاة السفار
انما تحملين آمال شعب .. ..

وقد ألقيت يومها قصيدة قلت فى مطلعها :

جلال اليوم بل يوم الجلال أثار معانى الشعر الغوالى

وقلت فى ختامها :

وأنتم سادتى شرفتمونا بحفل ضم أسباب الجمال
سنذرف فى وداعكمو دموعاً تفيض جوى بأطراف القنال
ونذكر فضلكم فى كل حين وحين تحوطنا قمم التلال[1]
وهاكم عهدنا هذا بأنا سنبذل كل مرتخص وغال

---

(١) تلال المقطم .

سنمضى سبيل العالم جمعاً ... ونقضى فى دراسته الليالى
.. .. ونخلص كلنا عند المآل

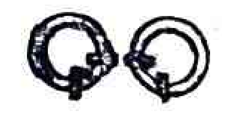
فأما أننا مضينا فى سبيل العلم وقضينا الليالى فى دراسة ، فهذا نترك الحكم فيه للقارىء بعد أن يطلع على ما فى المذكرات ويعرف كيف قضينا الليالى ؛ وأما اخلاصنا عند المآل فذلك مانرجوا أن نوفق فيه ؛ وأما الدموع التى تفيض على أطراف القنال فليتها كانت حقيقة وأغرقت من وقتها شركة القنال المنحلة وكفتنا مشاكل القنال وما بعد القنال . ولكن الحقيقة أن هذه الدموع كانت كذب الشعر ومبالغته فقد تحولت بقدرة قادر إلى أفراح وزغاريد ترددت فى جنبات الباخرة التى حملتنا ، وإلى اللقاء فى الذكرى القادمة يوم الجمعة لنتتبع هذه الرحلة الطريفة ونتمتع معاً بهذه الزغاريد والأفراح .

رحلة فى الظلام

جمعنا السيد طاهر الدباغ قبل بدء الرحلة وكنا فى جدة ننتظر الباخرة عدة أيام وبسبب ظروف الحرب لم نعرف تاريخ وصولها إلا قبل الوصول بليلة وقال لنا السيد طاهر : إن السنة أنه إذا كان هناك جماعة فى سفر فعليهم أن يؤمروا أحدهم ، وأنه اختار علوى جفرى ليكون أميرنا فى الرحلة .

وقد تأثرت فى نفسى فقد كنت أول البعثة ولكن صغر سنى حال بينى وبين هذه الأمارة ومع ذلك فقد كانت هذه الأمارة عبئاً مع الشلة الكريمة .. فقد لقى أمير الرحلة الكثير من العنت والتريقة وكنا نترقب يوم وصولنا إلى السويس لتنتهى هذه الأمارة . . وكانت الباخرة تسير فى ظلام دامس بسبب الحرب .. وكان يحدث ونحن نقضى الوقت فى لعب ومرح أثناء النهار وأحياناً أثناء الليل أن تدوى صفارة الإنذار ويتجارى البحارة ونجرى نحن لنلبس أحزمة النجاة ثم يظهر لنا أن المسألة مناورة لتدريب البحارة والركاب على التصرف السريع أثناء الخطر . . وكان الهرسانى أكثرنا خوفاً فكنا نوهمه بحدوث الغارات ونجرى فى الطرقات فيندفع ويلبس حزام النجاة حتى قرر أخيراً أن يلبس هذا الحزام ليلا ونهاراً وكان منظره عجيباً وهو بالحزام وشفتاه تتلوان جميع ما حفظه من الأدعيه والأوراد . . وكانت الباخرة تحوى دورات مياه أفرنجية لم نرها من قبل وكان تصرفنا فيها مثيراً للضحك ونحن نستعملها

لأول مرة . وعقدنا أواصر الصداقة مع ضباط الباخرة وقائدها فزرنا جميع أقسامها واستمعنا إلى شرحهم لآلاتها وطريقة سيرها . . وكان على الباخرة الشيخ أحمد طلبه صقر الواعظ المصرى فقضينا معه أياماً جميلة وهو رجل حلو الحديث واسع الاطلاع . . وأخيراً ألقت الباخرة مراسيها فى ميناء السويس لنجد فى استقبالنا أستاذنا الفاضل السيد ولى الدين أسعد مراقب البعثة وقد استقبلنا استقبالا يليق بالمقام ويشبه إلى حد كبير استقبال الحجاج بن يوسف لأهالى العراق وهذا هو موضوع الذكرى القادمة . وإلى اللقاء .



الليلة الأولى فى مصر

وصلنا فى المساء إلى السويس ، وأخذنا السيد ولى الدين أسعد إلى فندق الحميدية المطل على محطة السكة الحديد ، وقضينا الليلة مع مضيف جديد تعرفنا عليه لأول مرة وهو البق ..

لم ننم طوال الليل وكنا نتسلى بالضحك والمرح ما عدا السيد حسن شطا الذى كانت تبدو عليه دلائل الفزع ولم يشأ أن يخبرنا عن سبب فزعه إلا فى الصباح عندما سألنا [ألم تسمع صوت المجنون الذى يصيح طوال الليل] ولما أخبرناه بالنفى تعجب ، وأخيراً فهمنا من مجرى الحديث أنه يقصد صفير القطارات .. وكان كلما صفر قطار ظنه مجنوناً يصيح فزاد فزعه واضطرابه .

وفى الصباح أقلنا القطار إلى القاهرة .. ودوت الزغاريد فى محطة مصر مرحبة [بمشائخ العرب] الذين أتوا بالجملة ونحن فى دهشة من كل ما تقع عليه عيوننا من مناظر ..

وأخيراً وصلنا إلى الدار المؤجرة لنا فى حى عابدين .. وبعد العصر ذهبنا مع السيد ولى الدين إلى محلات أفيرينو حيث اشترينا بدلا جاهزة ولم نخرج إلا ونحن نرتدى الملابس الجديدة ، وأصر السيد ولى الدين على أن نلبس الطرابيش استكمالا للحشمة والوقار ، وظللنا سنة كاملة نلبس الطرابيش ولا نستطيع الخروج من دار البعثة بغيرها ، وإلا تعرضنا للخصم من رواتبنا المتواضعة .. وأراد السيد ولى الدين

أن يرينا العين الحمراء من البداية ، فألقى فينا خطاباً ضمنه كثيراً من النصائح ، وختمه بجملته التقليدية الحجاجية [والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل] وكنا فعلا نخافه ونحترمه حتى زال الخوف تدريجياً ، وبدأنا فى عمل المقالب التى احتار فى القضاء عليها ، ولهذه المقالب قصة أو قصص سوف نقدمها تباعاً فى هذه المذكرات .

وبعد المغرب فكرنا فى التنزه والترويح عن النفس فذهبنا إلى أحد أماكن النزهة جميعاً وكنا خمسة عشر لا نفترق أبداً ، ولكن قصتنا ونحن ندخل مكان النزهة طريفة تستحق أن نفرد لها المذكرة التالية من هذه المذكرات .

مثلت دور العبيط

منذ بدأت رحلتنا من جدة حتى وصلنا إلى القاهرة ، كنا نسرد أسماءنا فى كل مناسبة : عند موظفى الجوازات والحجر الصحى وموظفى الباخرة والفندق إلخ .. ولذلك عندما خرجنا فى أول ليلة لوصولنا إلى القاهرة نطلب النزهة وذهبنا إلى إحدى دور النزهة العامة فى حى السيدة زينب وجدنا عند مدخل الدار شباك التذاكر والعامل جالس خلفه لأخذ النقود ، فأردت أن أظهر النباهة وسرعة الخاطر ، فتقدمت الزملاء وطلبت من الرجل خمس عشرة تذكرة ، وبدأت أملى عليه الأسماء ليعطينا التذاكر بموجبها .. وحملق الرجل فى وجهى تارة ، ثم فى طربوشى وبدلتى تارة أخرى ، وكان الزى الأفرنجى لم يزل غريباً على جسمى ، ولابد أن ربطة العنق كانت توحى بأنى غريب على البلد وعلى الملابس الأفرنجية وعلى دور النزهة . ثم انفجر الرجل ضاحكا وانفجر الزملاء خلفى يضحكون إظهاراً لشعورهم الكريم نحو هذه العباطة التاريخية .

وفى ليلة تاليه ذهبت مع شرف كاظم مبكرين لحجز الأماكن لنا وللزملاء وكنا قبل أن نختار الدار التى سنتنزه فيها نبحث عن أقرب مسجد إليها لأداء الفريضة . . وحجزنا الأماكن ثم ذهبنا لصلاة المغرب فى مسجد قريب فى شارع عماد الدين ـ وعلى فكرة ـ كان السيد ولى الدين يسميه شارع ـ هدم الدين ـ وعند عودتنا أخطأنا الطريق وأخذنا نتخبط

ن الشوارع وكلها متشابهة على الغريب وأخيراً وصلنا راكضين لنجد العرض قد بدأ ولنجد إخواننا على باب الدار يمطروننا بوابل من الشتائم المنتقاة من حارة أسفل

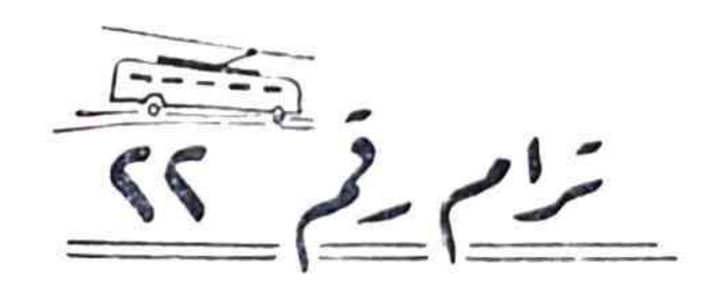
ثم بدأنا نستعد لدخول الجامعة وما أدراك ما الجامعة .. وهذا موضوع الذكرى القادمة إن شاء الله .

على أبواب الجامعة

كان مجموعى يؤهلنى لدخول كلية الطب وفعلا قدم إسمى لهذه الكلية وإن كان راودنى شعور بالرغبة فى الدخول فى كلية الآداب ولكنى تغلبت أخيراً على هذا الشعور ، وكان السيد ولى الدين يأخذنا ويدور بنا على الكليات وأخذت بعض الكليات تعتذر لوصولنا بعد شهر من ابتداء الدراسة وللخوف من ضعف مستوانا : فعميد كلية التجارة لم يقبل زملاءنا فى الكلية إلا بعد جهود جبارة من السيد ولى الدين ومع ذلك كان زملاءنا دائما فى مقدمة الناجحين رغم أنهم كانوا لا يعرفون اللغة الفرنسية ، ودرسوا مقرر الثانوى والسنة الأولى الجامعية فى بضعة شهور . . ووصلنا قبل أن يصل التحويل للسيد ولى الدين ولم يكن فى الإمكان دخول كلية الطب إلا بعد دفع المصاريف الدراسية مقدما ولم تكن عندى نقود تكفى لذلك ، وعرض على بعض الزملاء المساعدة فأبيت شاكراً حتى وصل التحويل للسيد ولى الدين ودفع لى المصاريف . . وبقيت مشكلة البادكوك . . رغب فى دخول كلية الطب . . وكان العدد المسموح لغاية ثلاثة فقط فقدم له السيد ولى الدين فى كلية الزراعة . . فشق ذلك على البادكوك . . لقد كانت أمنيته وهو فى الثانوى أن يتعلم الصيدلة ويفتح صيدلية فى شارع فيصل بجدة ويتضارب كل يوم مع سعيد تمر بزجاجات حامض الكبريتيك . .

إنه يرى أمنيته تتبخر . . ورأى المرحوم خاله يتوسط دون جدوى . . وقد وعدنا خاله بأكلة ديك رومى ظل — رحمه الله — يتملص منها حتى توفى . . وكان كلما جاء إلى البحثة نلتف حوله ونرحب به ونتحدث عن فوائد الديك الرومى . ولكن آمالنا تبخرت كما تبخرت آمال البادكوك فى كلية الطب . وأخيراً دخل الزراعة مكرها . . ترى لو عادت به الأيام إلى الوراء فهل يختار بديلا بالزراعة وفوائدها الجمة وثمرتها اللطيفة فى كازينو كيلو عشرة ؟ .





كان هذا الترام هو وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى إعدادى الطب بكلية العلوم بالعباسية نصف أيام الأسبوع . وهو ترام يمر من المذبح إلى العباسية ، وكان مزدحما دائما بالجزارين والعمال الذين كانوا يعملون فى الورش الإنجليزية بالعباسية وكنا نبكر فى الذهاب إلى الكلية لحجز الأماكن فى الصفوف الأولى فلا نجد مكانا فى الترام إلا على السلم وفى الشتاء كنا نلاقى كثيرا وتكاد أيدينا تتجمد ونحن نمسك الحديد ولم يكن فى الامكان استئجار تاكسى أو الركوب فى الدرجة الأولى . . وفوق ذلك أصبنا جميعاً بالكحة عند وصولنا إلى مصر . كنا نلبس الملابس الصوفية لأول مرة ونتعرض للشمس فتبدأ الكحة ونبدأ فى خلع ملابسنا فى الشوارع العامة وكان منظراً مثيراً للضحك ولكننا كنا مضطرين لشدة إصابتنا بالكحة مما يضطرنا لنزع ملابسنا الصوفية .

وقد يسبق أحدنا زملاءه إلى الكلية ويحجز لهم الأماكن فنستدل على مكانه فى المدرج بطربوشه فقد كان الخروج من دارنا بدون طربوش يعرضنا للخصم من رواتبنا . وكنا الوحيدين بين الطلبة تقريبا الذين نلبس الطرابيش . وكنا نتناول وجبة الغذاء فى الكلية بقرشين أو ثلاثة على قدر الحال فقد كان راتبنا الشهرى من البعثة جنيها ونصف جنيه مصرى بالوفاء والتمام وكنا نذهب فى نصف الأسبوع إلى كلية

العلوم بالجيزة لأخذ دروس الطبيعة والكيمياء وهكذا كانت سنتنا الأولى فى مصر غير مستقرة ونعود إلى البيت يومياً مع الغروب لنستأنف المذاكرة حتى بعد منتصف الليل وكثيراً ما كان السيد ولى الدين يأتى إلى غرفتنا ويجبرنا على انهاء المذاكرة والنوم راحة لأجسامنا ورحمة بنا من كثرة الإرهاق..

لقد كانت سنة مليئه بالعرق والدموع ومع ذلك فقد نجحنا جميعاً فيها رغم تأخرنا عن بدء الدراسة ورغم غربتنا ومشاكلنا البيتية . فقد كانت إعدادى الطب ولا تزال من أصعب سنوات الدراسة ولكن الله كتب لنا النجاح فيها والحمد لله .



السلف والخلف

أما السلف فهو بكل تواضع وحياء وخجل الداعى وزملاؤه أعضاء أول بعثة أرسلت إلى مصر من مدرسة تحضير البعثات .. كنا محافظين جداً على كل شيء .. الصلاة فى أوقاتها جماعة بدار البعثة ولم يكن أحد منا يتخلف عن الصلاة خوفاً من خصم الراتب كما اتبع السيد ولى الدين مع البعثات اللاحقة . . والطربوش كان من المستحيل أن نغادر الدار بدونه فى الكلية وفى الأسواق وفى المنتزهات . . وكانت النزهة المفضلة عند السيد ولى الدين التى ينصحنا بها دائماً هى أن نذهب إلى كوبرى قصر النيل القريب من دارنا ونقضى فيه المساء لنستنشق هواء البحر الأبيض المتوسط حتى لم نبق بقية من هذا الهواء لغيرنا .. وكنا لا نخرج إلا جماعات وكثيراً ما كنا نشاهد مجموعة واحدة : وكنا إذ سمعنا عن منتزه جديد أو دار جديد ، للفسحة لا يسمح لنا السيد ولى الدين إلا بعد أن يصحبنا إليها فى أول مرة فإن وجدها تتمشى مع الفضائل والأخلاق سمح لنا بها فيما بعد . وكنا لا نتأخر خارج الدار فى المساء إلا ليلة الجمعة فقط حيث نتأخر حتى الساعة التاسعة والنصف أفرنجى ونعود لنجد السيد ولى الدين فى الدار يسجل حضورنا ولا أذكر أننا تأخرنا عن هذا الموعد قط طيلة عام كامل إلا مرتين تعرضنا فيها للتحقيق والتهديد بالخصم ثم تبنا . . وكان من الأيام المحرم علينا فيها الخروج من البعثة يوم شم النسيم لأنه يوم تنتحر فيه الفضيلة على رأى السيد ولى الدين وهو يوم لا يبقى فيه إنسان فى داره فى مصر ..

إن السيد ولى الدين مجموعة فضائل وأخلاق ويحرص على التربية الدينية العربية ومن حسن الصدف أنى أصل إلى هذه الحلقة من المذكرات فى الوقت الذى تلقيت فيه نشرة منه عن مدارس منيل الروضة التى يشرف عليها والتى تعد من أرقى المدارس الخاصة فى مصر من حيث منهاج الدراسة فضلا عن التربية الدينية العربية التى يختص بها طلابها .

هذا ما كان من أمر السلف ثم جاءت البعثة الثانية أو على الأصح جاء الخلف ـ بسكون اللام ـ وبدأت حياتنا فى البعثة تدخل فى طور جديد .. ويكفى أن تعرف أن من طلاب البعثة الثانية أسعد جمجوم وعبد الله مراد وحسين العطاس لتعرف مقدار التطور الجديد .. ولعل الحادث الذى نرويه فى العدد القادم يعتبر نقطة التحول فى تاريخنا فى البعثة .

على عربية كارو

وصل أعضاء البعثة الثانية واستقبلناهم مرحبين وأخذنا نسمع منهم أخبار الوطن فقد كنا فى شوق إليه طيلة عام كامل . . كانت الحرب فى العالمين والمواصلات بيننا وبين المملكة بطيئة جداً وهى محصورة فى المواصلات البحرية فى ذلك الوقت . وذهبنا مع الزملاء والسيد ولى الدين إلى محلات أفرينو وأخذنا نلبسهم البدل الجاهرة ونعلمهم ربط ربطة العنق ثم وضعنا الطرابيش على رؤوسهم حسب النظام المتبع فى البعثة . . وفى مساء يوم وصولهم أحبوا أن يزوروا معالم القاهرة ويتفسحوا وكان رائدهم فى ذلك المساء أسعد جمجوم فماذا يفعل ؟.. قال لهم أن المشى متعب والمسافة بعيدة وكان قد سبقهم بأيام وعرف أشياء كثيرة عن البلد واستدعى عربية كارو من التى يركب عليها النساء البلديات فى القاهرة وأركب الزملاء المحترمين ببدلهم الأنيقة وطرابيشهم المحترمة . . فكنت ترى المشائخ : بابصيل وصالح جمال وحسن فقيها وعبد الله مراد وعبد القادر كعكى يتربعون على العربية الكارو ومعهم بالطبع أسعد جمجوم لئلا ينفضح المقلب . . وأخذ يتجول بهم فى شوارع القاهرة والناس فى عجب من هذا المنظر الطرابيشى وهم لا يعلمون سر تعجب الناس . شىء واحد ألوم أسعد عليه وهو أنه لم يأخذ صورة فوتوغرافية لهذه المجموعة العجيبة على العربية الكارو لأن هذه الصورة لو ظهرت مع هذه الذكرى لكانت رائعة . حقاً لقد كان هذا الحادث نقطة التحول فى تاريخ البعثة .. لقد انقلب البيت الهادىء الوديع إلى مكان صاخب ملىء بالمقالب والحركة كما سترى فى الذكريات التالية .

الكمسارية اشتكوا

لقد مرت بنا مع الكمسارية فى مصر طرائف كثيرة تستحق أن نفرد لها هذه المذكرة وهذه الطرائف تشمل بطبيعة الحال فن التزويغ من دفع التذاكر وقد برعنا فى هذا الفن إلى حد كبير وكان من بين أصدقائنا كمسارى ترام أزهرى ويحمل شهادة الأزهر ويحفظ كثيراً من الشعر والأقوال المأثورة كنا نعقد معه ندوة أدبية متنقلة . . وكانت محطة الأتوبيس المجاورة لدار البعثة اسمها - المنيل - وكان أحد زملائنا يصر على تسميتها - بالمنبل - بالباء المشددة وقتاً طويلا .. وبجوارنا محطة ترام اسمها محطة [دير النحاس] وجاء يوماً شرف كاظم يشكو من غباء الكمسارى لأنه طلب منه النزول عند محطة [زير النحاس] فلم يفهم فانفجر رشيد رضوان ضاحكا لأن شرف قليل الفهم ولم يعرف أن هذه المحطة اسمها [بير النحاس] . وهكذا تحور اسم هذه المحطة كل هذه التحورات . والكمسارية الغلابة محتارون بيننا .. وللبادكوك قصة طريفة مع كمسارى ترام ومع عمدة كان راكباً فى الترام فأما قصته مع الكمسارى فهى التى سأذكرها فيما يلى وأما قصته مع العمدة فأنا على استعداد لروايتها شفهياً لمن يطلبها . . وعلى فكرة البادكوك المذكور فى هذه المذكرات هو الأستاذ محمد بادكوك مدير فرع الزراعة بجدة وليس بادكوك الخارجية وأنا أذكر هذا التصحيح بناء على طلب الصديق . . . والقصة مع الكمسارى حدثت بعد وصولنا إلى مصر ونحن نسكن حى عابدين . .

خرجنا نريد الجامعة فى الجيزة وعندما وصل الترام تهيأ البادكوك للصعود فوضع شنطته فى الترام واستعد للركوب ولكن الكمسارى نفخ زمارته ومشى الترام بالشنطة والبادكوك يجرى خلف الترام ويصيح [استنى ياعمى] والكمسارى ينفخ زمارته ويضحك والناس يضحكون حتى وقف الترام ووصل البادكوك وأنفاسه متقطعة وما أن استقر على المقعد وجفف عرقه حتى انفجر ضاحكا واستمر الضحك فى الترام حتى وصلنا .

وقصة أخيرة مع الكمسارية . . وصل سليمان سلامة إلى مصر وكان الوصى عليه ابن عمته أسعد جمجوم [آخر زمن] فأخذه فى القطار إلى الإسكندرية لإلحاقه بكلية فكتوريا وأخذ أسعد تذكرة ونصف لهما وكان سليمان طويلا وكان لايزال خجولا . . ومشى بهما القطار وأقبل الكمسارى يسأل عن التذاكر وسأل عن صاحب نصف التذكرة فأشار أسعد إلى سليمان فطلب الكمسارى من سليمان الوقوف فوقف وأنظار الناس تتطلع إليه والكمسارى يقول [شـــوفو يا افندية كل دا نصف راكب] والعرق يتصبب من سليمان وأسعد يضحك ثم دفعوا فرق التذكرة والغرامة وسليمان يلعن الوصية والوصى المحترم .

تشكيل العصابة

اعتاد بعض زملائنا فى البعثة أن تصل إليهم من أهليهم مواد غذائية يبرونهم بها بينما كان البعض الآخر محرومين والمساواة كانت واجبة ونحن نعيش فى بيئه واحدة. وكانت الصراصير لا تنقطع عن دار البعثة وبعد البحث عن السبب وجد أن المواد الغذائية المخزنة فى دواليب بعض الزملاء من أهم العوامل فى تكاثر الصراصير .. كل هذه العوامل أوحت إلى حسين العطاس وأسعد جمجوم بتشكيل العصابة فى البعثة.. وهكذا كانت أهدافها النبيلة تنحصر فيما يلى :

١ ــ المساواة بين الزملاء .

٢ ــ مكافحة الصراصير .

٣ ــ عمل المقالب الطريفة للترفيه عن طلاب البعثة .

وقد ساعد السيد ولى الدين أسعد مراقب البعثة على بعث هذه العصابة من حيث لا يشعر وإن كان قد عانى منها ومن مكافحتها الشيء الكثير .. فقد أخبرنا ذات مرة أن البعثة الأولى التى كان أحد طلابها انقطعت مواردها مرة وعانى طلابها إفلاساً شديداً وكان السيد محمد شطا من أحرص أعضائها فكان يدخر فنجد عنده الجبن والزيتون والحلويات والمواد الغذائية المختلفة فكان السيد ولى الدين وزملاؤه الآخرون يهاجمون السيد محمد فى داره ويستولون على ما عنده من مدخرات.

وقد التحقت أنا بالعصابة بعد أن عرفت أهدافها النبيلة وسوف

تحتل ذكريات العصابة مكاناً كبيراً من هذه المذكرات كما انضم إلى العصابة عدد طيب من الزملاء سوف ترد أسماؤهم فى هذه المذكرات حسب المناسبات .

وكان السيد أحمد شطا من أكبر مقاومى العصابة حتى سميناه فى بياناتنا التى كنا نصدرها ونعلقها خفية فى المناسبات باسم [مدير الأمن العام] . . ولم يتمكن أحد من كشف أسرار العصابه وخططها أبداً . . كان نصيبى المتواضع الاشتراك فى وضع الخطط أو تهذيب الخطط بحيث لا تحدث ثغرات ولا تنكشف الأعمال وكان أسعد جمجوم هو الرئيس الأعلى للعصابة وكنا نعقد سنوياً اجتماعاً يحضره جميع البعثة ويلقى بياناً عن أعمال العصابة يستهله بالعبارة المأثورة [حضرات اللصوص . . حضرات النشالين] على وزن [حضرات الشيوخ . . حضرات النواب] .

أما حوادث هذه العصابة فأكثر من أن تحصى ولكنى سوف أذكر فى الحلقات القادمة الحوادث البارزة والأعمال الإنسانية النبيلة التى قامت بها هذه العصابة الجليلة .



تصدر هذه الذكرى فى أيام افتتاح المرسلة الجديدة للإذاعة ليعرف الناس أن أول إذاعة سعودية انبعثت من دار البعثة السعودية بالقاهرة منذ ثلاثة عشر عاماً ولم يكن اللاسلكى هو الذى ينقلها بل سلك صغير لا يتجاوز بضعة أمتار وبعدها انطلق المذيع بأول صيحة من [هنا مكة المكرمة] .. فكيف حدث ذلك ؟ .

أحضر أسعد جمجوم إلى دار البعثة جهاز إرسال صغيراً ، وضعناه فى غرفة فى الدور الثالث ووصلناه خفية بسلك صغير إلى جهاز راديو فى الدور الثانى وكنا حوالى خمسة نعرف السر وأذعنا بين طلاب البعثة أننا سمعنا ونحن ندير الراديو إعلاناً من راديو مكة بأنه سيفتتح رسمياً فى تلك الليلة وحددنا الساعة . وكان الجميع فى شوق لسماع صوت يأتى من الوطن الحبيب ، وكانت المواصلات مع المملكة لاتزال صعبة بسبب ظروف الحرب العالمية الأخيرة . . وأعددنا برنامج الافتتاح وفى الساعة المحددة كان الزملاء الذين عليهم دور الإذاعة يقفون منتظرين أمام الميكرفون والبعض الآخر واقف مع طلاب البعثة الذين احتشدوا عن آخرهم لسماع أول إذاعة سعودية . وانطلق صوت المذيع يصف حفلة الاستقبال ثم قال [وهذا هو الشيخ عبد الله كاظم مدير عام البرق والبريد والتليفون يستقبل كبار المدعوين] وعند ذلك قفز شرف

كاظم واقفاً وهو يصفق فرحاً وغبطة . ثم قدم رشيد رضوان ماتيسر من آى الذكر الحكيم بعد أن سميناه باسم أحد المقرئين الحجازيين وتقدم بعدها حامد دمنهورى بكلمة الافتتاح وقدمناه باسم الأستاذ عبد الله عبد الجبار مدير عام الإذاعة السعودية وقد علق الهرسانى وهو يسمع الكلمة [بأنه صوت عبد الله عبد الجبار الذى لا ينكر!] ثم اختتمت حفلة الافتتاح وبدأت الاذاعة تقدم البرنامج المعتاد فكان من ضمنه حديث أدبى للسيد أحمد العربى وانتحل شخصيته أحد الزملاء ثم قدمنا رشيد رضوان على أنه حسن لبنى حيث قدم دوراً حجازياً والسادة المستمعون منسجمون يتأوهون يرددون [طيب يا أبو على] .

وأخيراً جاءت نشرة الأخبار ولفقنا فيها بعض ماكان يشغل الأذهان من أخبار داخلية وخارجية وكان من أهم الأخبار التى أذكرها خبر عودة الشيخ عبد الرحمن بابصيل - رحمه الله - من السودان بعد شفائه وكان أولاده سعيد وصالح يعلمان عن سفره وينتظران خبر شفائه وعودته وما إن أذاع المذيع هذا الخبر حتى فرحا وتعانقا وأخذ الزملاء يقدمون لهما التهانى الطيبة . . وبعد الانتهاء بدأ الزملاء يعرفون السر تدريجياً من المشتركين فى الخطة ماعدا سعيد عمر وسعيد بابصيل الذين ظلا إلى وقت متأخر من الليل مرابطين بجانب الراديو يستمعون إلى نشرة الأخبار وهى تعاد وإلى صوت حسن لبنى وهو يجلجل فى إرجاء البعثة .

دفتر الضبط

وكنا فى أيام البعثة الأولى لا نخرج إلا جماعات وذلك بطبيعتنا دون أمر من المراقب . ثم لما جاءت البعثة الثانية عمل السيد ولى الدين رواداً كنت واحداً منهم يرأسون الجماعات التى تخرج للفسحة فى أعداد لا تقل ثلاثة .. ثم انتهى نظام الرواد بمرور الوقت وكان السيد ولى الدين يحتم علينا الكتابة فى دفتر خاص اسم المكان الذى سنقضى فيه فسحة ليلة الجمعة ، ولم يكن يصرح لنا بالخروج إلا ليلة الجمعة . وكان يرابط فى دار البعثة فى هذه الليلة ليسجل أوقات عودتنا ولم يكن يسمح لنا بالتأخر بعد العاشرة مساءاً بالتوقيت الأفرنجى .. وفى إحدى ليالى الجمع كان السيد ولى الدين فى دار البعثة يراقب خروجنا وإذا برشيد رضوان ومنصور عارف خارجان وقد لبس كل منهما ملابسه الأنيقة فسألهما السيد ولى الدين [إلى أين ؟] فقالا بسلامة نية [الكيت كات] وكانا قد رأيا إعلاناً عنه فى الجريدة ولم يكونا يعرفان شيئاً بعد عن القاهرة .. فانبرى لهما السيد ولى الدين [كيت كات فى عينكم ، إن شاء الله أكتكت دماغكم] . وألقى عليهما محاضرة جديدة فى فوائد استنشاق هواء البحر الأبيض المتوسط . . وقد استمر دفتر الضبط حتى جاء أسعد جمجوم وكان سبباً فى إلغائه .. كتب فيه ذات ليلة سأذهب إلى محل كذا رواية كذا .. تمثيل كذا إخراج كذا تصوير كذا إنتاج كذا . . وهكذا حتى ملأ صفحة كاملة من دفتر الضبط وعندما اطلع السيد ولى الدين على الدفتر أعلن خصم

خمسين قرشاً من راتب أسعد . . فسكت أسعد حتى كانت ليلة البريد التى يسهر فيها السيد ولى الدين فى البعثة ليعد الرسائل للمعارف . . وكان أسعد هو المكلف بصيانة كهرباء البعثة مقابل مكافأة خاصة . . أطفأ أسعد الكهرباء فى تلك الليلة وثار السيد ولى الدين واستدعى أسعد . . فساومه أسعد على إصلاح الكهرباء مقابل إعادة الخمسين قرشاً المخصومة . . وفعلا سلم السيد ولى الدين المبلغ لأسعد الذى أصلح الكهرباء فى الحال . وهكذا كان أسعد جزاه الله خيراً أول من دق مسماراً فى نفس دفتر الضبط ثم توالت الحوادث وانتهى هذا الدفتر إلى غير رجعة .

من حوادث العصابة

للعصابة حوادث هامة تستحق أن يفرد لكل حادثة منها فصل خاص من هذه المذكرات وهذا ما سنراه ، ولكن هناك حوادث صغيرة أذكر بعضها فى هذه الحلقة كنماذج صغيرة . .

وصلت إلى محمد منصورى علبة تمر محشوة باللوز بها نحو أقتين ووصلت إلينا الأخبار فصادرناها ووجدناها لذيذة جداً وجاءها سمسم . . ثم وضعناها فى كل مكان أمين لنتزود منها عند الحاجة وكان الوقت بعد الظهر . . وفى المساء كنا نتعشى فى دار البعثة وكان الأكل فى ذلك اليوم دجاجا وهو من الأيام الهامة فى البعثة .

وعند خروجنا من المطعم علمنا أن السيد ولى الدين قد بلغه الحادث وإنه سيقوم بحملة تفتيش وفى الحال صعدنا إلى مخبأ التمر وكنا خمسة ولم نترك العلبة حتى أكلنا جميع ما فيها رغم عشائنا الدسم وألقينا العلبة فى الشارع . . وفتش السيد ولى الدين فلم يجد شيئاً . . وحدث بعدها أن جاءت تنكة تمر لعبد الله البغدادى ولم تكن محشوة باللوز فصادرناها وأخذنا نأكل منها ونوزع على الطلاب . وكنا نعمل ذلك فى الخفاء حتى لا يرانا البغدادى . . وفى اليوم التالى علمنا أن البغدادى شكا للسيد ولى الدين مراقب البعثة وكأنه أراد أن يثير اهتمامه فأخبره أنها تمر باللوز . . وما أن علمنا حتى أخرجنا التنكة من مخبئها وأخذنا

نأكل علنا والبغدادى لا يستطيع أن يتكلم فإنه قد شكا عن فقد تمر باللوز . .

وجاءت بعثة جديدة فيها هاشم طاهر وأحضر معه زنبيل بلح زهو . . وهذا شيء نادر فى مصر . . ووقفنا على الباب نرحب بالزملاء الجدد ونراقب ما معهم فى نفس الوقت فقد كانت العصابة تنشط عند وصول قادمين جدد محملين بما لذ وطاب . . ووضع هاشم زنبيل البلح على باب غرفة السيد ولى الدين ودخل ليسلم عليه . . وأسرع الطريقى -وكان من الأعضاء البارزين - وأخذ الزنبيل ووضعه عند الطلاب المصريين الذين كانوا يسكنون على سطح البعثة ولم يكونوا عرضة للتفتيش . . وخرج هاشم ليجد الزنبيل قد طار . . فعاد إلى السيد ولى الدين وشكا له الأمر فضحك السيد ولى الدين لإنه أدرك السر وأراد هاشم أن يثير اهتمام السيد ولى الدين أكثر فأخبره أنه أحضر الزنبيل هدية له . . فقال السيد ولى الدين إنه مادام الأمر كذلك فإنه يشكره ويعتبر الزنبيل قد وصل فقد كان السيد ولى الدين يعرف من سوابق العصابة أن لا فائدة من البحث وحرقان الدم . . وخرج هاشم وهو غضبان لهذا الاستقبال البارد فى الوقت الذى كان فيه أعضاء العصابة يتمتعون بأكلتهم الشهية على سطح البعثة . .

الأطباق الطائرة

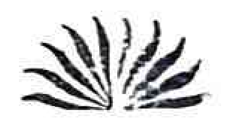
كثيراً ما سمعنا عن الأطباق الطائرة وهل هى حقيقة أم خرافة . أما طلاب البعثات الأوائل بمصر فقد كانوا يعرفون إنها حقيقة وإن الفضل فى اختراعها يعود إلى عبد الله أبو العينين . . كنا نتناول الغذاء فى دار البعثة بعابدين . . وكانت هناك فرقة تحريش سوف أفرد لها حلقة خاصة من هذه المذكرات . أخذت الفرقة فى التحريش بين علوى جفرى وعبد الله أبو العينين على أمل مشاهدة فصل شيق من فصول المضاربة بعد الأكل . . ولكننا فوجئنا جميعا بطبق الملوخية الكبير يحمله عبد الله أبو العينين ويصبه على علوى جفرى . . ورغم أننا حرمنا من الملوخية يومها فقد كنا مسرورين لهذا المنظر الشائق . . وعقدت الدهشة لسان علوى وقام من فوره ليبدل ملابسه . .

ثم تكررت بعد ذلك حوادث الأطباق الطائرة فى البعثة حتى جاء حسين العطاس وقام بتجديد خطير فى هذا الاختراع كنا نتناول العشاء بدار البعثة فى الروضة وفرق التحريش تؤدى واجبها بين العطاس والبغدادى وإذا بالعطاس يحمل طربيزة الأكل بأجمعها ، ويقذفها على البغدادى ويحرمنا من العشاء فى تلك الليلة . . ومن يومها أوقفنا هذه التجارب بعد أن تطورت وأصبحت تهدد البعثة بالجوع والحرمان .

وبمناسبة ذكر حادثة أبو العينين أذكر أنه كان سهل المنال لفرق

التحريش . . كنا ذات ليلة نصلى العشاء ومن عادة السيد ولى الدين أن يطيل الصلاة حتى يدركها الجميع . . وأثناء الصلاة سمعنا فى الغرفة المجاورة حركات عنف وضرب ولكم وآهات مكتومة وزجاجا ينكسر وأثاثا يتناثر فعلمنا أن هناك مضاربة وإن كنا لم نعرف المشتركين فيها . . وما أن انتهت الصلاة حتى تسابقنا لنمتع الأنظار بهذا المشهد الجميل .

فوجدنا رشيد رضوان وعبد الله أبو العينين فى صراع غير متكافئ . . وفصل بينهما السيد ولى الدين - سامحه الله - وحرمنا من مشاهدة الفصل الأخير لهذه المضاربة الشيقة . .



فلسفة الفلسفة

صديقنا الأستاذ السيد محمد عمر عقيل من الشخصيات الظريفة . . زاملناه مرة فى القسم الداخلى بمدرسة تحضير البعثات ولنا معه فصول كثيرة . . كان يستيقظ متأخرا فيفطر وحده ويتضايق المراقب من أمره ويظل يراقب انتهاءه بفروغ صبر . . ومرة كب كأس الحليب على الأرض وبدلا من أن يبادر بتنظيف الأرض أخذ يلعب فى الحليب بأصبعه ويقول بالإنجليزية [ما هذا] وأفهمنا المراقب أنه يتكلم بألفاظ بذيئة ، وكانت واقعة لطيفة . . وله مع البادكوك فصول لطيفة رويت بعضها فى مذكرات سابقة حتى اضطر البادكوك لأن يهجوه فى قصيدة أذكر منها .

أسبك سب كبايا وعسلا إذا انبرتا لشخص بالخصام

وكبايه وعسله كانتا تبيعان الفول النابت فى النورية بجدة ، ولم يعجبه كتاب الكيمياء ذات مرة فوضع له ملخصا كان محشوا بالمعلومات المغلوطة واتفقنا وقتها مع الأستاذ رشوان على تسمية هذا الملخص [كيمياء الشبيبة - تأليف أبو زبيبة] وبالطبع كان هذا الملخص سببا فى دخوله الملحق فى الكيمياء ولا بد أنه اقتنع بعدم صلاحيته لأنه نجح فى الملحق . . واختلط عليه النفى والاستفهام فى اللغة الإنجليزية وهو يصرف جمله [عندى قلم] . . وأخيرا ابتدع طريقة للتعبير عن الاثبات

والنفى والاستفهام ، فعندما يريد الاثبات يقول [عندى قلم] بلهجة عادية ، وعندما يريد النفى يقولها بنفس ألفاظها مع تحريك رأسه يمينا ويسارا ، وعندما يريد الاستفهام يقولها بنفس ألفاظها ولكن بلهجة استفهامية . . والذين يعرفون الإنجليزية يدركون أن هناك تغييراً يطرأ على الجملة فى الحالات الثلاث .

ولما سافرنا إلى مصر إلتحق مع زملائه بكلية الآداب . . وذهبوا جميعا للسلام على العميد وكان الدكتور إبراهيم حسن . . وبالطبع قدموا السيد عمر عقيل لإلقاء كلمة نيابة عنهم فألقى كلمة ارتجالية ، فماذا قال ؟ كان يريد أن يقول إننا كنا متهيبين من هذا اللقاء فإذا بنا نجد من تواضعكم ولطف شخصيتكم ما أزال هذا التهيب . . ولكنه عبر عن ذلك بقوله [لقد كنا نظن أننا سنقابل رجلا عظيما] ثم أدرك أنه تورط وبعد وقفة بسيطة استدرك قائلا [والواقع إنه عظيم] وكان يلقى الخطاب من هذا الطراز . . .

ثم جاء اختبار الفلسفة ، وبعد أن اطلع على الأسئلة . أخذ ورقة الإجابة وكتب عليها [إن هذه الأسئلة غلط . . وكان ينبغى أن تكون الأسئلة كذا وكذا] ثم أجاب على الأسئلة التى وضعها هو وكانت النتيجه أن سقط فى الفلسفة أو على الأصح فى فلسفة الفلسفة . وترك بعدها كلية الآداب والتحق بكلية الحقوق . وهو يستعد الآن لدخول اختبار الدكتوراه . . حتى إذا عاد إلى بلاده فائزاً منتصرا وقد بلغ السن النظامية يحال فورا إلى التقاعد والله ولى التوفيق .

عرق ... ودموع

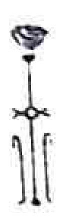
لم تكن حياتنا فى الدراسة كلها ضحكات شابة ونوادر لطيفة .. لقد كان يتخللها لحظات من الأسى وساعات من العرق والدموع .. كنا نحبس أنفسنا طوعا واختياراً أياما عديدة بل وشهوراً قبل الإختبار لا نغادر دار البعثة إطلاقاً .. وكنا نقف تحت باب الكلية ساعات ننتظر نتيجة الاختبار كما ينتظر المتهمون نتائج الحكم عليهم .. وكانت هذه الساعات من أشد الساعات حرجا فى حياتنا .. تكاد قلوبنا تتمزق من تسرعها ، وتكاد أقدامنا لا تقوى على حملنا ، ونكاد نسابق الثوانى لنعرف ما يخبوه لنا القدر .. وكما ذقت حلاوة النجاح كثيراً عرفت مرارة السقوط مرة وكانت صدمة قاسية لى وأنا الذى تعودت على الفوز المحلق .. ولكنى سرعان ما تقبلت الصدمة واتخذت منها طريقاً لمعاودة السير فى طريق النجاح .

كنا نقضى الساعات الطويلة فى العمل فى الكلية دون طعام إلا لقمات نتناولها ساعة الظهر هى ما كنا نجده فى مقصف الكلية .. وكنا نخرج من غرفة التشريح ورائحة الموت تزكم أنوفنا ؛ وأيدينا ملوثة نعجز عن تنظيفها ؛ ثم ندخل إلى المقصف لتناول الغذاء أو لشرب الشاى .

ولم تكن ساعات النهار لتكفى لاستيعاب الدروس فكنا نتردد على الأساتذة لأخذ دروس خاصة وخصوصاً فى السنة الأولى . لا نشبع

بنوم أبداً .، ننام خمس ساعات أو ست على الأكثر لنستيقظ من جديد إستعداداً ليوم حافل آخر ، ولم يكن لدينا وقت للنوم بعد الظهر ولم تكن هذه الساعات كافية لمن كان فى مثل عمرنا .

لقد كانت سنوات شقاء وعذاب . . ولكن سكننا فى دار البعثة مع إخواننا الآخرين كان يجعل من أوقاتنا فى الدار ساعات سرور ومرح .



أول خبر وفاة

كان ذلك يوم شم النسيم وكان يوما عاصفاً شديد الحرارة ، وقد سافر أسعد جمجوم إلى السويس لتوديع بعض أقاربه ، وكنا فى دار البعثة بعد الظهر عندما رن جرس التليفون . . ورفع السيد إبراهيم الوسيه السماعة ليسمع نبأ وفاة الشيخ حامد رويحى - أطال الله حياته - فأخبر الشيخ عمر رفيع مدير البعثة المساعد الذى أسرع إلى المرحوم السيد صالح شطا وكان فى مصر يقضى فترة للعلاج وأبلغه النبأ .. واستقل الجميع سيارة تكسى وأخذوا معهم المرحوم عبد الحميد رويحى دون أن يخبروه بالحادث لئلا يصدم . . وتحرك التكسى من الروضة وبعد أن سار قليلا سأل الوسيه عبد الحميد [هل والدك مريض] فأجاب عبد الحميد بالنفى . وبعد أن وصل التكسى إلى القصر العينى جاء دور الشيخ عمر الذى سأل عبد الحميد [نحن سمعنا أنه مريض وقلبه فى خطر] ولكن عبد الحميد أنكر .. وعندما وصل التكسى إلى ميدان قصر النيل وأوشكوا أن يصلوا إلى دار الرويحى التفت السيد صالح إلى عبد الحميد - رحمهما الله - وقال له [لقد بلغنا أن والدك توفى ، والموت حق . . إلخ] وهكذا نقلوا الخبر تدريجياً إلى الابن المسكين الذى تولته الدهشة والخوف فقد كان مع والده فى مساء اليوم السابق وهو بخير وعافية ، ووصل التكسى أخيراً إلى دار الرويحى . . وصعد الجميع ليجدوا الشيخ حامد يداعب تعميرة الجراك .

وانقلب حزنهم إلى مباسطة وسرور .. ثم عادوا إلى دار البعثة ليكتشفوا فيما بعد أن أسعد جمجوم هو الذى دبر المكالمة التليفونية .. ولكنهم لم يتعظوا فقد كانوا فريسة لمقالب تليفونية أخرى كما سنرى فى هذه المذكرات .

⊙

فرق التحريش

كان يلذ لنا فى البعثة التحريش بين الزملاء ؛ ونسر جميعاً لمنظر المضاربات ؛ ومن الذين اشتهروا بالتحريش أحمد شطا وحسن شطا وشرف كاظم وأمين جاوه وعلى غسال والداعى .. ولو أننى أردت استقصاء جميع المضاربات لوفيت مجلداً عنها هذا إذا أسعفتنى الذاكرة . ولكنى سأذكر أهمها اليوم وفى بعض الحلقات التالية ..

كان لا يمر يوم لانحرش فيه بين أحمد شطا وسعيد آدم وكانا يقضيان الساعات فى المضاربة بالأيدى وبجرادل الماء ونحن نتفرج ونوقد النار كلما أوشكت أن تنطفىء .

وعندما جاء محمد صالح رضوان إلى مصر لأول مرة كان الشيخ حامد رويحى ولى أمره وأوصى ابنه المرحوم عبد الحميد بملاحظته وكان الأخير يسكن معنا فى البعثة ويأتى محمد صالح لزيارته ويظهر له الإحترام والأدب فأردنا أن نزيل هذا الحجاب بينهما وأخذنا نحرش بينهما وكان التوفيق حليفنا ولكن محمد صالح كان يأتى ببدلته ويخشى تمزقها فأعددنا له ثوباً خاصاً للمضاربة نقدمه له حال دخوله إلى دار البعثة لتبدأ المضاربة وتمتع أنظارنا بمشاهدة الفوارق وهى تتحطم بين التلميذ وبين ولى أمره

واحتدمت المناقشة يوماً بين الكعكى والبغدادى .. ونحن نضحك ونوقد النار .. وثار البغدادى ولكنه وزن الأمور فوجد أنه من الحماقة

مهاجمة الكعكى وهو أقوى منه فغافل أسعد جمجوم وهجم عليه واشتبك الاثنان وكانت النتيجة أن تغلب أسعد على البغدادى . . وبعد أن تفرقا قال البغدادى لأسعد (كل يوم زى كده) رغم أن البغدادى كان مغلوباً .

ومن الطف التحريشات ماقمنا به بين علوى جفرى وسلطان زمزى . وكانا ينامان فى غرفة واحدة . . ويتكلمان أثناء النوم بل ويمشيان . . وكان من عادتهما أن يغلبهما النوم مبكرين ، وذات ليلة كنا نذاكر فى غرفتهما عندما بدأ أحدهما يتكلم وهو نائم وأخذ الآخر يرد عليه فتدخلنا وحرشنا بينهما فى الكلام فأخذ يكيلان الشتائم لبعضهما وهما نائمان .. وأخيراً بلغ بهما الحماس أن قاما ليتضاربا دون أن يشعر أحدهما بشيء . . ولم يستيقظا من النوم إلا على رنين الكفوف يكيلها أحدهما للآخر .. ونحن نكاد نموت من الضحك على هذا المنظر الفريد .

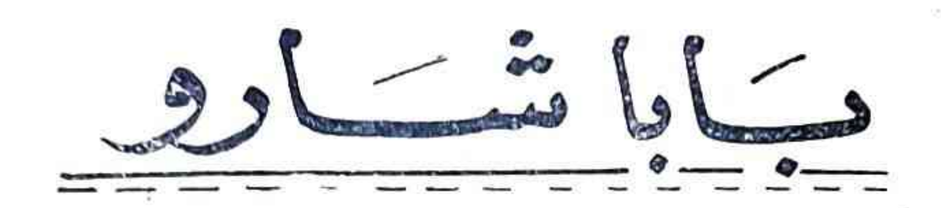
زواج أبو شفوع

وأبو شفوع هو الشافعى مساعد الطباخ فى البعثة ومن أهل مكة . .
وكان شخصية طريفة تمكنت منه الحاروية ، وكنت تراه دائماً فى فناء البعثة
[يتقاشع] مع المنيعى أو الغسال أو محمود مرداد .. ولقد تزوج مرتين
ونحن فى مصر وذهب الزملاء يحضرون الزواج الأول وبدأ الفرح .
وكان أقارب العروس وأصدقاؤهم من فتوات الحسينية على ما يظهر :
وأمثال هذه الأفراح فى مصر تنتهى غالباً بمعركة وإلا فقد الفرح أهم
خصائصه ولم يجد الفتوات ما يتفخرون به .. وتصدى واحد من الفتوات
لطلاب البعثة وفيهم [النشامى] المعدودون فبرز له المنيعى و [خش]
له وسط على الطريقة الحجازية فى المضاربة . . ولكن يظهر أن الفتوة
لم يعترف بهذه الطريقة فاستعمل [البوكس] وفى لحظة كان أخونا المنيعى
ممدداً على الأرض دون حراك .. ودوت الزغاريد تحي فتوة الحسينية ..
أما فتوة الحجون فقد حمله زملاؤه الذين آثروا السلامة وعادوا إلى دار
البعثة قانعين من الفرح بالفرار .

وجاء زواج أبو شفوع للمرة الثانية . . وذهبنا لنكبر يومه ولنساهم
فى النقطة وألف مرة والجدعان وغير ذلك من مظاهر الفرح البلدى
فى مصر . . وانكمش النشامى فى هذه المرة . . وبعد منتصف الليل
بدأ الزفاف والنصة .. ثم عدنا إلى حلبة الفرح مرة أخرى . . وبعد قليل

انسحب أبو شفوع .. وظللنا وقتاً ثم سمعنا صياحاً وتخبيطاً على الأبواب فأسرعنا نتلمس السبب . . كان أبو شفوع يريد أن يثبت رجولته فوراً وبنفسه . . أما والدة العروس فكانت ترى أن ذلك يعتبر وحشية وأن من الضرورى اتخاذ الوسيلة المتبعة فى بعض الأوساط البلدية هناك .. ودارت معركة كان فيها أبو شفوع منفرداً وسط مجموعة كبيرة من الرجال والنساء .. وانجلت المعركة أخيراً عن فوز أبو شفوع وخروجه منتصراً مرفوع الرأس وسط الهتاف هتاف صاخب من طلاب البعثة الذين رأوا فى انتصاره رداً كريماً على الهزيمة التى منوا بها فى زواجه الأول .





بابا شارو

كان السيد ولى الدين أسعد مراقب البعثة يعدد لنا فوائد الإذاعة وأثرها فى تثقيف الشعب . . . وأخذ يذكر أبواب الإذاعة المختلفة حتى قال [وحديث الأطفـــال لبابا شارو . . . إنه حديث قيم فيه ثقافة للأطفال ... وإنى قد عودت أطفالى على انتظار هذا الحديث... وأجلس معهم دائماً لسماعه وشرح ما قد يحتاج إلى شرح لهم . .] والتقطها اللبيب ...

إذن فالسيد ولى الدين من مستمعى بابا شارو . . إن هذه فرصة طيبة لمداعبة السيد ولى الدين . . . أرسل أسعد جمجوم خطاباً بالبريد لبابا شارو قال فيه بعد أن انتحل لنفسه إسماً مناسباً [إن إبنى ولى الدين أسعد كثير الشقاوة فى البيت . . . ويضرب إخوته . . . ويعمل كذا وكذا] .

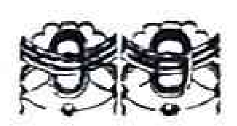
وجلسنا يوم إذاعة حديث الأطفال إلى الراديو وكنا نتخيل السيد ولى الدين جالساً إلى الراديو أيضاً مع أبنائه يستمتعون بهذه الثقافة الطيبة .

وجاء دور الرسائل الموجهة إلى بابا شارو من أهالى الأطفال . . . وانطلق بابا شارو يقول [خلاص أنا مخاصمك ياولى الدين أسعد . . .

مش عيب بابا يشتكى منك وتعمل شقاوة فى البيت وتضرب اخواتك إلخ ...]

وفى تلك الليلة جاء السيد ولى الدين إلى البعثة لإنجاز البريد . . . ودخلنا عليه نعرض مشاكلنا فكان كلما سلم عليه أحد نظر إليه من تحت لتحت وكأنه يقول [هل أنت الذى عملت العملة] .

ومن المؤكد أن السيد ولى الدين انقطع بعد ذلك عن سماع بابا شارو وفوتنا على أطفاله الاستمتاع بثقافة أحاديث الأطفال . .



مقامات الساسى

أخونا طاهر الساسى كان ذا مزاج عجيب .. يكتب يومياً خطاباً لوالده يشرح فيه دقائق ما يحدث فى البعثة .. [اليوم كان الأكل دجاجاً ولكن الطباخ لم ينظفه جيداً .. واليوم تضارب فلان مع فلان بسبب كذا .. واليوم تخاصمت مع فلان ولم أتصالح معه إلى غير ذلك] . . . وقد تضارب مرة مع رشيد رضوان مضاربة حامية الوطيس وطبعاً فتك به رشيد حتى سال دم الساسى .. وبعد أن تدخل الموفقون بينهما وقبل أن يصلح الساسى من هندامه وشكله أخذ ورقة وقلماً وكتب لوالده [والدى العزيز : أكتب إليك والدماء تسيل على وجهى . . . ثم أخذ يصف المعركة وصفاً دقيقاً ويسمى رشيداً فى كتابه تسميات تدخل فى باب المملكة الحيوانية ...].

واشتد الشتاء فى البعثة وكانت أحوالنا مفلسة فأخذ هو والرويحى ـ رحمه الله ـ بطانيات البعثة وعملا منها سترات طويلة [بالطو] . . . وكانت مفاجأة للسيد ولى الدين . .

وكان الشيخ الساسى عضواً فى مجلس المعارف وممن يعطف على أحوال البعثة . . كيف لا ولديه سجل يومى عن حوادثها .

وذهب بعض الزملاء فى الأجازة الصيفية إلى مكة وطبعاً قابلوا الشيخ ... وكانت هناك إشاعة أن ميزانية البعثة تبحث وأن هناك زيادة

فى مرتبات الطلاب . . فسأل الزملاء الشيخ عن حقيقة زيادة المرتبات ولكنه أجابهم وهو يضحك ضحكته المعروفة [ما كان على ما كان] وهكذا ذهبت - مثلا - يذكر كلما جاءت ذكرى الشيخ الساسى بين الطلاب . . .

وأخيراً تزوج أخونا الساسى وكنت أنا واسطة الزواج فقد تزوج من بعض جيرانى وما أن تمت مراسم الزواج حتى كشرت حماة الساسى عن أنيابها ودخل فى مشاكل عجزنا عن حلها . . .

واتهمنى الزملاء بأن زواج الساسى كان مقاباً مدبراً منى وأقسمت بعدها ألا أرتكب جريمة تزويج أحد وللساسى فى زواجه نوادر لا يتسع المقام لذكرها ؛ وقد تذكر هذه النوادر فى المجالس الخاصة .

بط الشيخ عمر رفيع

هذا الحادث يعتبر من أهم الحوادث فى البعثة . . وكانت العصابة تحتفل كل عام بذكراه وتسمى يوم الذكرى [يوم البط] وفى إحدى المناسبات ألقى أسعد جمجوم قصيدة مطلعها :

يا يوم البط نمجده ميدان الجيزه موعده

كان الشيخ عمر رفيع يربى فى دار البعثة خمس بطات و يعدها لحملة غذاء للمرحوم السيد صالح شطا الذى كان يستشفى فى مصر .

هذه معلوماتنا ولكن للحقيقة والتاريخ نذكر أن الشيخ عمر رفيع ينفى أن البط له : ويؤكد أن البط للمرحوم محمد سالم . وكان شكل البط وهو يتهادى فى فناء البعثة مغرياً ومسيلا للعاب أعضاء العصابة . . . وفى إحدى ليالى الجمع تقرر اختطاف البط . . ولا أنكر أنى كنت من مدبرى الخطة .

ولكن للحقيقة والتاريخ مرة أخرى أذكر أنى كنت منهمكاً فى مذاكرة التشريح إستعداداً للاختبار ولكنى كنت مطلعاً على تفاصيل العملية أولا فأولا وللأسف لم أذق لحم ذلك البط . . . حمل أعضاء العصابة البط وأخرجوه من الباب الخلفى للبعثة وشاهدهم مكوجى البعثة ولكنهم هددوه بالتسبب فى فصله من البعثة إذا أذاع الخبر .

وكان منظر أفندية يحملون البط على كوبرى عباس والبط يصيح

منظراً غريباً أصلحه رشيد رضوان والمرحوم الرويحى بأن قالا لرفاقهم بصوت عال مسموع [الله يلعن كلية الطب حتى البط يكلفوننا بتشريحه] .

ووصل الزملاء إلى مطعم فى الجيزة واتفقوا مع الطباخ على طهيه وعمل عشاء لهم . . . وكان فى المطعم مصادفة البغدادى ومحمود حجازى وأحمد المبارك من طلاب البعثة . . . فطلب منهم أسعد جمجوم أن يشاركوهم فى الغنيمة لئلا يفضحوهم على شرط ألا يعترفوا فى التحقيق .
أما المبارك فوعد بعدم إفشاء السر ولكنه اعتذر عن الاشتراك لأنه يخشى أن يحلفه السيد ولى الدين اليمين فلا يستطيع النكران إن أكل معهم . . أما الباقون فقد وقعوا جميعاً على محضر أعده أسعد قالوا فيه [نعترف أننا سرقنا البط واشتركنا جميعاً فى أكله] وأعتقد أن أسعد لايزال يحتفظ بهذا المحضر . . .

واكتشف الشيخ عمر الحادث فى نفس الليلة ولكن أسعد كان ملازماً له ولم يغب إلا فى فترات الاختطاف والأكل ولم يلاحظ الشيخ عمر هذا التغيب . . وأنا كنت أذاكر فى غرفتى . ولذلك وجدنا من السهل إلصاق التهمة بعلوى جفرى وسعيد آدم وحسن فقيها وكانوا يشتركون فى عشاء فى البعثة مكون من الكبد والكلاوى وكان حسن فقيها يشرف فى المطبخ على إعداد العشاء . . فاعتقد الشيخ عمر بإيعاز منا أن هذه كبد وكلاوى البط المخطوف . ولكن الجماعة حلفوا له الأيمان المغلظة .. فزال الشك منه قليلا . . حتى تأكد فى اليوم التالى من الحقيقة .. ولكن المسألة مرت بسلام . .

يوم البلاد السعودية

أقامت كلية الآداب بالقاهرة سلسلة من الأيام عن البلدان العربية ، فيوم للعراق ويوم لسوريا إلخ . .

وكان طلاب كل بلد عربي يظهرون في يومهم ألواناً من النشاط الإجتماعي والمسامرات في بلادهم ، وكان اليوم عبارة عن مهرجان عظيم للدعاية . .

وجاءنا زملاؤنا في كلية الآداب يطلبون منا إعداد برنامج لإقامة يوم للبلاد العربية السعودية وبدأنا نعد البرنامج ونعمل بروفات في دار البعثة . . وكان سعادة الشيخ عبد الرؤوف الصبان رئيساً لمجلس المعارف ومقيماً وقتئذ في مصر . . فأطلعناه على البرنامج . . فحذف منه لعبة المزمار التي كنا نتدرب عليها يومياً ويحرص النشاشي على وجودها في البرنامج . . وأقره في ذلك الشيخ أحمد باغنار الذي كان في مصر ، وبالطبع كان السيد ولي الدين من المؤيدين لها . .

وجاء يوم المهرجان وغصت قاعة المحاضرات الكبرى في كلية الآداب بالمدعوين والأساتذة والطلاب . . ووزع برنامج الحفل وكان من بين مواده [لعبة العمال] . . وبدأ تقديم البرنامج . . قدم محمد منصوري مع مجموعة الحجاج بملابس الإحرام وهم يلبون ، وكان منظراً مؤثراً . . وقدم رشيد رضوان مع مجموعة أخرى أغاني البدو وهم في العباءات البدوية

وكانوا بالطبع يؤلفون كلاماً من رؤوسهم لا يمت للغة البدو بشيء؛ ولكن أحد أساتذة اللغة العربية فى الكلية أسرع نحوهم وفى يده ورقة وقلم ليلتقط هذه اللهجات البدوية من منابعها الأصلية .. وقدمنا ألواناً أخرى من البرنامج كانت جميعها محل الإعجاب وكان يومنا أحسن الأيام ..

ثم جاء دور لعبة العمال .. ودخلنا الصالة فى الزى الحاروى يتقدمنا بادكوك وعليه عمامة العمد التقليدية وعلى كتفيه ما تيسر من المصانف والبقش؛ ونحن ننشد خلفه [يا شيخنا حنا قليله لكننا سم العدا] .. وانتصب الشيخ أحمد باغفار واقفا — وهو ابن خال البادكوك — وقال [عملوها الفروخ] ..

ووضعت النار فى وسط الصالة وبدأت لعبة المزمار التى أخفيناها تحت إسم [لعبة العمال] وسر لها الحاضرون جميعاً وفى مقدمتهم الشيخ عبد الرؤوف وكان عمدتنا يتقبل عبارات التحية والإعجاب ..

ثم ألقى الشيخ عبد الرؤوف كلمة شكر فيها الحاضرين . كما ارتجل الأستاذ فؤاد شاكر أبياتاً أولها :

باسم الحجاز وباسم الشعر والأدب

هتفت بالشعر فى كليـــة الأدب



كانت هذه التجارب لاتنقطع فى دار البعثة . وكانت جرادل الماء وهى تصب من شاهق على الطلاب أو على زوار دار البعثة الأفاضل شيئا عاديا فى حياة البعثة . . وكانت إدارة البعثة تعجز عن ضبطنا متلبسين بهذه التجارب لأن المراقبين كانوا متأكدين أن أى واحد منهم يطل برأسه ويبحث عن الذين يلقون جرادل الماء سيكون نصيبه واحدا من هذه الجرادل دون شك . . كان الأستاذ إبراهيم الفلالى مراقبا فى البعثة وكان شديداً لقى منه الطلاب كثيراً من خصم الرواتب . . وكان يومها جالساً فى الشرفة قبيل المغرب ينتظر مدفع الإفطار فى رمضان . . وإذا بجردل من قمر الدين المثلج يصبه عليه أمين جاوه من الطابق العلوى . . هب الرجل واقفا وهو يصيح ويشتم ويدعو وبالطبع لم يعرف غريمه . .

ولعله يعرفه الآن وكان عبد القادر جان أكثر خوفاً من جرادل الماء . . كنا نتسحر فى رمضان ونجرى لننتظره بعد السحور بجرادل الماء فكان يتأخر فى غرفة الطعام ويصلى الصبح وتطلع الشمس وهو يصيح [ياناس حرام عليكم أريد أن أنام] ومع ذلك فكان يتلقى وجبته اليومية من جرادل الماء . .

وجاء السيد إبراهيم الشورى يفتش على البعثة . . ولم تعجبه أعمال الطلاب وتصرفاتهم فقال للشيخ عمر رفيع مدير البعثة المساعد [لا بد من

استعمال الحزم مع الطلاب] فشرح له الشيخ عمر المصاعب التى يلقاها مع الطلاب وشقاوتهم .. ومع ذلك فقد كان السيد إبراهيم يصر على أن استعمال الحزم كفيل بوضع الأمور فى نصابها ..

وخرج يومها السيد إبراهيم من البعثة والشيخ عمر يودعه على الباب وكان الطلاب يمزحون بالماء فأصاب « السيد إبراهيم » جردل خاطىء من الجرادل فعاد إلى البعثة ليجفف ملابسه والشيخ عمر يقول له شامتا : [هيا ياسيدى ورينا الحزم] .

قائد الملحق

أخونا أحمد المبارك من الشخصيات الظريفة .. وقد سبقنا فى الابتعاث ووجدناه فى مصر .. فوجدنا فيه أخا أديباً ، كريم الخلق خطيباً على طريقة [كيفما اتفق] ..

فهو لا يعد الكلمة التى سيلقيها ، بل عندما تطلب منه الكلمة يقف ويلقى كلاما كيفما اتفق .. وكان يتحلى بالأناة وخاصة فى الامتحانات فهو لا يرى من الضرورى التعجل فى إنهاء السنوات الدراسية ، فالسنة الدراسية كما وصفها رواد الثقافة تنتهى فى بضعة شهور ، ولكن الأستاذ المبارك يرى فى ذلك إرهاقاً للطالب الذى يجب أن يتروى فى التحصيل سنة وسنتين وثلاثا حتى يهضم هذه المعلومات المكدسة ويستوعبها .. فإذا جاء اختبار الدور الأول ذهب الأستاذ المبارك بنفس راضية مطمئنة ، وخرج منه وهو واثق من عدم النجاح ، وأخذ يتلقى التهانى من زملائه ، كما أخذ يستقبل زملاء الملحق ويتصدى لزعامتهم وينظم معهم برامج المقالب والفسح فى الصيف غير أن الأستاذ المبارك فوجىء مرة مفاجأة لم تكن فى الحسبان خرج من امتحان الدور الأول وهو سعيد للنتيجة المرتقبة وهى بالطبع عدم النجاح ..

وأخذ يعد نفسه للدور المظم الذى ينتظره فى الصيف ودخل زميله فى كلية اللغة العربية السيد محسن باروم يخبره أن النتيجة قد ظهرت وأن

المبارك بين الناجحين . فضحك المبارك وضحكنا وقلنا للباروم [إلعب غيرها . . قديمه] ولكن الباروم كان جاداً وأخذ يحاف أن المبارك قد نجح . حينذاك وجم المبارك ولكن لم يكن مصدقاً ، وقام ليذهب إلى الكلية ويتأكد بنفسه ، وذهبنا معه خوفاً عليه من أن يصدم بالحقيقة ودخلنا على سكرتير الكلية نسأله فاطلع على الأوراق . وقال نعم هو ناجح . ولكن المبارك قاطعه صائحاً [ياأستاذ تأكد ربما أن رقم جلوسى مغلوط] وتأكد السكرتير . . وخرج المبارك وهو مطأطئ الرأس قائلا [إنا لله وإن إليه راجعون] ونحن نواسيه ونعزيه والسكرتير فى عجب لهذا المنظر الغريب . وكانت ليلة فى دار البعثة لم يبتسم فيها المبارك ووفود الطلاب تدخل عليه للتسرية والترويح عنه ورفع معنوياته بعد أن فقد الزعامة التى حافظ عليها بجدارة سنوات طويلة . . وبعد أيام اضطر المبارك مرغما أن يعود لقضاء عطلة الصيف فى الاحساء بين أهله ؛ وكان الطريق إليها لايزال بالسيارات من جدة فالرياض .

رسائل الأشواق

كانت هذه الرسائل من وسائل التسلية عندنا فى البعثة كنا نختار زميلا متأنقاً أو معجباً بنفسه فنبعث إليه برسالة مزورة بخط رفيع وعلى ورق أزرق أو وردى ومضمخة بما تيسر من العطر ، وتشيد الرسالة بالمرسل إليه ويتراءى الإعجاب بين سطورها ، ثم تنتهى الرسالة بتحديد موعد . وقد أرسلنا كثيراً من هذه الرسائل وسوف أذكر منها ما وعته الذاكرة .

كانت أولى الرسائل لحسن فقيها . . وكان يخرج يومياً مع زملائه للفسحة على كوبرى قصر النيل واستنشاق هواء البحر الأبيض المتوسط [حسب نصيحة السيد ولى الدين] . وفى اليوم الذى تلقى فيه الرسالة اعتذر عن الخروج ، ولما ألح عليه بعض الزملاء الذين كانوا يعرفون قصة الرسالة اعتذر بالتعب وأن عنده مذاكرة . فخرج الزملاء وتركوه .. وذهبوا إلى المكان الذى حددته الرسالة ينتظرونه وما إن حل الموعد السعيد حتى أقبل أخونا حسن فى حلة أنيقة وقد وضع وردة حمراء فى سترته ووقف ينتظر ويتلفت يميناً وشمالا لعله يجد صاحب الوعد الذى ذكر الملابس التى سيرتديها . . وأخيراً ظهر له زملاؤه وأعادوه إلى دار البعثة وسط زفة وهتاف .. ومن الرسائل اللطيفة رسالتان وجهنا أحداهما لمعتوق باحجرى والأخرى لعمر عقيل وكان الموعد فى الرسالتين

فى ساعة واحدة فى الحديقة اليابانية بحلوان . . وشاهدت محطة باب اللوق منظراً طريفاً . . وصل الزميلان ليستقلا القطار إلى حلوان . . ورأى كل منهما الآخر وتجاهله ولما ركبا القطار أخذ كل منهما يختفى عن الآخر . . وكذلك فعلا فى الحديقة اليابانية . . ولما طال الانتظار ويئسا عادا واستقلا القطار وحينئذ لم يجدا داعياً للإختفاء وجلسا متجاورين وكل منهما يخفى الفشل الذى لقيه ولسان حال كل منهما يقول [وتبدلت غزلانها ...]

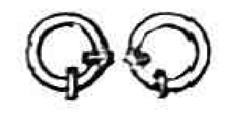
ورسالة طريفة ثالثة تلقاها مراد أبو السعود والموعد بجانب قفص الأسود فى حديقة الحيوانات .. وذهب مراد وانتظر دون طائل ثم ظهر له خضر حجار ضاحكا مازحاً كعادته مع مراد . ولكن مراد ظن أن خضر هو مدبر المقلب وأنه حضر ليرى النتيجة واشتبك الاثنان فى صراع فضه حراس الحديقة .

ورسالة رابعة للشريف صادق رفيق وضعت على سرير نومه وداخل حلوى وكانت الرسالة كأنها ألقيت من نافذة البيت المجاور . . وأخفى صادق الرسالة والحلوى . ثم جلس ينتظر أياماً لعل الحلوى أو الرسائل تتكرر وفى سبيل ذلك ترك نافذة غرفته مفتوحة باستمرار وكانت تلك هى الخطوة التى تنتظرها العصابة . . فقد تسلل أفرادها من النافذة وسطوا على المأكولات التى فى الغرفة .

الضبط والربط

هذه الحلقة مهداة إلى طلاب البعثات العسكرية بمصر .. إنهم يطالعون فيها سطوراً من حياة التلمذة لمديرهم السيد منصور عارف ..جاء من المدينة لأول مرة ليلتحق بمدرسة تحضير البعثات فى مكة . . وأقام مدة فى جدة ينتظر الفرج من الأستاذ عمر نصيف ليسافر إلى مكة ، وقد تعرف فى جدة بالمرحوم محمد عثمان رضوان ، وكان هو وابنه محمد وداد رضوان مثال الظرف والأناقة ، وقال الشيخ عثمان يوماً لمنصور [إن ابن أخى رشيد رضوان سيكون من زملائك فى المدرسة وسوف يسرنى أن تكون وصياً عليه] وأخذ منصور يمنى النفس بمعرفة رشيد ظنا منه أن يكون مثل عمه وابن عمه . وكان منصور يتمشى يوماً فى باب جديد إذ برز له شخص فجأة وقال له :[مساء الخير يامنصور ، أنا رشيد رضوان] ودارت الدنيا بمنصور وتبددت أحلامه أدراج الرياح .. وعندما سافرنا إلى مصر استقبلنا السيد ولى الدين أسعد والأستاذ عبده العسكرى نائب القنصل السعودى فى السويس . . وهنا تجلت الروح العسكرية العربية فى منصور ، فإنه لم يكن يطلق على عبده العسكرى إلا عبده الجندى ، وظل كذلك مدة طويلة وربما إلى يومنا هـذا والتحق منصور بكلية الآداب إلا أن الروح العسكرية ردته إلى وجهته الطبيعة ، فالتحق بالكلية الحربية مع السيد على زين العابدين . وكانا لا يأتيان إلى دار البعثة إلا يومى الخميس والجمعة وعيونهما دامعة حمراء . كانا يلقيان عناء شديداً فى الكلية.

وكان زملاؤهما المتقدمون عليهما فى المدرسة وأساتذتهما شديدين معهما شدة متناهية حتى بدون مبرر .. فإذا تخاصم أحدهما مع زميل أعلى رتبة انتهز هذا الأخير الفرصة وحكم عليه بحبس [خميس وجمعة] أو [بطابور زيادة] أو طلب منه التشعلق على الدولاب لمدة ساعة . . ولكن مايكاد طلاب الكلية يخرجون فى يوم الخميس والجمعة حتى تراهم بملابسهم الأنيقة وعصيهم السوداء مرابطين أمام الأمريكين فى شارع فؤاد فى طابور محبب إلى نفوسهم ينسيهم همّ طوابير الأسبوع .



توحيد المشارب

كنا فى أيام البعثة الأولى ذوى مشارب موحدة . . نتمسح فى مجاميع كبيرة ونشاهد فى الأسواق معاً . . وكانت ميولنا واحدة . . اكتشف أحدنا ـ ولا أذكر من هو ـ مقهى تباع فيها القهوة [أم اللوز] . . فكنت تجدنا دائماً هناك رائحين غادين فى مجموعات . . وأطلقنا على هذه القهوة من باب الاختصار [أم لوزة] وكان يطيب لنا الجلوس هناك . . وكان صاحب المقهى [عباس أفندى] رجلا لطيفاً حلو النكتة . . فكان يطيب لنا الجلوس معه وقضاء أطيب الأوقات . . وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين البادكوك .

وكان لأسعد جمجوم شلته المكونة فى الغالب منى ومن البادكوك وعبد الله شرف . وكانت لأسعد سيارة سكودا ، وكنا نتقاسم قيمة البنزين ونخرج بها إلى الضواحى للنزهة . . وكان فى [طبلون] السيارة مفكرة يكتب فيها أسعد إحصاءا يومياً عن نزهاتنا . . ولعله يحتفظ بهذه المفكرة فيقدمها للصديق السيد سامى كتبي ، خدمة لفن الإحصاء . . ثم اكتشف واحد من الزملاء محل ليلاس فى روض الفرج فكنت تجد الزملاء يشغلون ترام ٣٠ كل خميس لقضاء السهرة فى ليلاس ، وكنت تجد عمر عقيل فى الصفوف الأولى ، وفى ليلاس نظم بادكوك قصيدته المشهورة :ـ

متع عيونك فى اللحاظ الدبل   واحذر ولا تقرب لئلا تبتلى

ويقول :ـ

وإذا رغبت أبا المليح وفنه فاركب ثلاثينا ولا تتمهل
وانزل آخر موقف لترامهم واسأل على ليلاس أين وأقبل
واجلس على الكرسى منجعصاً ولا
تضع الجاكته خلف ظهرك تنشل
واقعد كما قعد [العقيل] مفرفشاً
واقدم إذا حق اللقا فى الأول

ويقول :

وانده على الجرسون واطلب شاهياً
أو قهوة وقل القسال يا أبو على
وانس الهموم ولا تفكر ساعة
فى الوقت أو فى عمك [السيد ولى]
وإذا بليت بخصم شهر واحـد
فاصـــبر لحكم الله فهو المبتلى

وكان إبراهيم الوسية موظفاً فى البعثة ومشرفاً على رشيد رضوان بصفة خاصة ، لأنه قريبه ونصحه بعدم ارتياد أحد المحلات .. ولكن رشيد ذهب يوماً خفية إلى ذلك المحل فوجد الوسية فى الصف الأول .. فناداه قائلا : [مساء الخير ياسى السيد ماذا أتى بك إلى هنا ؟] فانزعج الوسية وقال : (أنا جئت مخصـوص لمراقبتك] ثم انقلبت رقابته على رشيد إلى الأبد .

وكان من الزملاء من له طابع خاص فى الفسح ، فمثلا : كنت تجد عبد العزيز الربيع دائماً فى الأمريكين، وحوله مجموعة من طلاب المدارس الثانوية وكنت تجد على غزال مع مجموعة من الزملاء فى حنطور مكشوف فى شارع فؤاد وهم يغنون بصوت عال [صهبة] ويصفقون وكأنهم أولاد حارة يتمشون فى حوارى النقاء .



ظهور الأشباح

كانت الأشباح تراود دار البعثة بمصر باستمرار .. كانت الأنوار تقطع فجأة عن دار البعثة ، ويسود الظلام ثم تتحرك الأشباح قاصدة وجهات معينة وتتخير زبائنها بين طلاب البعثة الخوافين .. كان بادكوك وأحمد جمجوم يدعون ويصلون فى ليلة النصف من شهر شعبان، وإذا بالأنوار تطفأ وتتحرك الأشباح لتمطرهم بوابل من قشر البطيخ ، وكلما اشتدت الحملة عليهم ضاعفوا من دعواتهم وتوسلاتهم .. وكان عبد اللطيف جمجوم نائماً فى فراشه فاستيقظ فجأة ليجد نفسه فى ظلام دامس وقد غرق هو وفراشه تحت وابل من قشور البطيخ والشمام وبذورهما ، فجلس فى فراشه يتلو آية الكرسى وما تيسر من التعاويذ والأدعية .. ثم اختارت الأشباح رشيد سنبل وهو نائم وداعبته بعود طويل تغمزه به فى أماكن معينة من جسمه ، وهو يغطى نفسه باللحاف ويرتعد مع كل غمزة ويقرأ التعاويذ والأدعية .. وأبو العينين يستيقظ مذعوراً ليجد الأشباح تنشد نشيداً خاصاً فوق رأسه ، ثم تضاء الأنوار فجأة ليجد أحد الأشباح عاريا فيطلق صيحة فزع ثم ينطلق وراء الأشباح التى تهرب ، ويكاد واحد منها أن تنزلق قدمه وهو يقفز من شرفة إلى شرفة فيسقط فى الشارع لولا أن الله سلم .. وقد أرسل عبد اللطيف جمجوم كتابا لابن عمه أسعد يتبرأ فيه منه لأنه لا يرد

الأشباح عنه ، فما كان من أسعد بعد أن اكتشف خطأ نحويا فى الرسالة ، إلا أن يؤشر عليها بالأحمر ثم يعيدها إلى ابن عمه وعليها [تسعة من عشرة] .. أما البادكوك فما يكاد يعرف عن ظهور الأشباح حتى يلجأ إلى غرفة الأستاذ عمر رفيع مدير البعثة المساعد ، ويطلب منه أن [يسريه] إلى غرفته فيصعد معه الشيخ عمر ثم يمر علينا فى غرفنا ونحن نتظاهر بالنوم فيشاهدنا ويتسمع إلى ضربات قلوبنا وإلى تنفسنا ، ثم يعود دون نتيجة .. وكان السادة حمزة المرزوقى ومحمد شطا وياسين طه يفتشون فى تلك الأيام على البعثات ، ولاحظوا ضيق الدار وأخذوا يبحثون عن دار أخرى لنا .. وتوالت عليهم الشكاوى تطالب التعجيل فى إيجاد الدار - خاصة بعد ظهور الأشباح .. ثم تقدم الطلاب إلى مدير البعثة بعريضة وقعوها جميعاً عدا حامد هرسانى وعبد الله بغدادى اللذين تشاءما مما فيها .. وكانت العريضة تطلب بناء مقبرة [قرافة] لطلاب البعثة بعد أن مات واحد منهم ودفنوه فى المقابر العامة .. وأخذ السيد ولى الدين يضرب كفاً بكف وهو يقدم العريضة لحضرات المفتشين ويقول [اتفرجوا يا سيدى إحنا ما وجدنا لهم دار للسكنى وهم الآن يطلبون قرافة لهم] .. ورأى حتى المفتشين أن السلامة تقضى بترك هؤلاء الطلاب وشأنهم بعد أن أعيتهم الحيل فى إرضائهم .

منظر فى شيكوريل

كان محمد فدا ، على علاقة طيبة بالعصابة وإن لم يكن عضواً فيها ولكن العصابة كانت تخشى لسانه وما اشتهر به من ألفاظ كانت غريبة فى ذلك الوقت على أسماع الطلاب ، وإن كانوا قد استحسنوها وتداولوها فيما بعد .. ومن النكت التى تداولوها فى ذلك الوقت ، أننا كنا نتخيل الندا ، وقد أصبح رئيس محكمة وقد جلس ينظر فى قضية وعن يمينه البابصيل وعن يساره المنيعى ثم يتداول رئيس المحكمة مع عضوى الميمنة والميسرة قبل إصدار الحكم كما هو مشاهد فى الروايات المصرية ، فكنا نتخيل الفدا يسأل العضوين عن المتهم بعد المرافعة [إيه رأيكم فى ابن كذا وكذا] وكان الفدا ذواقة للطعام يجيد الطهى ويتفنن فيه .. كما كان أنيق الملبس .. وكان إجتماعيا فى حفلات البعثة ورحلاتها وخطيباً وشاعراً .. وكان بينه وبين مسجل كلية الشريعة [اتفاق الجنتلمان] يأخذ المسجل فى نهاية كل شهر الجراية المقررة لمحمد فدا من الكلية نظير التستر على غيابه من الكلية طيلة أيام الشهر [وأرجو أن يعذرنى الصديق فى إذاعة هذا السر بين طلابه الذين يحاسبهم حسابا دقيقا على الحضور فى أوقات الدوام] .

وقد أخبرنى على الشاعر - والعهدة على الراوى وهو صادق الرواية - أنه ذهب مرة مع الفدا لشراء فلانِّن صوف من شيكوريل ، وعندما ذهبا لدفع الفلوس وقفا فى الطابور ووجدا عاملة الكيس تجيد عدة لغات .

فقال على الشاعر للفدا : سوف أظهر لك عجزها فى اللغات .. ولما وصل الشاعر إلى العاملة كلمها بلغة شبيهة بالتكرونى فلم تفهم وهو يتكلم بصوت عال وبحركات من يده وبسرعة كالماكينة فتفرست العاملة فى وجهه وهو أسمر وله مشالى فنادت أحد البرابرة الذين يعملون فى المحل بعد أن ظنت أن الشاعر بربرى ولكن التفاهم كان صعباً لأن الشاعر كان يؤلف الكلام الذى يقوله من رأسه .. وأخيراً هزت الشهامة محمد فدا فتطوع للترجمة قائلا : إنه من الحجاز ومتعود على مثل هذه اللهجات .. ودفع الشاعر الفلوس ثم وقف يصلح ربطة عنقه أمام المرآة والطابور معطل والناس متضجرون فصاحوا يطلبون خروجه .. فالتفت إليهم وقال بالعربية : [حاضر والسلام عليكم] ثم ولى هاربا . وهنا التفت موظفو المحل والزبائن إلى الفدا وقالوا له : [يا نصابين عاملين تمرة وعطلتمونا] فأقسم لهم الفدا أنه لا يعرفه ولم يشاهده إلا فى شيكوريل .. ولكن لم يقتنع أحد وخرج الفدا مشيعاً بالسخط وهو يلعن الساعة التى تعرف فيها بعلى الشاعر .

فى الأقصر وأسوان

جاءت أجازة السنة الدراسية فى أحد الأعوام فى فصل الشتاء وهو الوقت المناسب لزيارة الأقصر وأسوان وفيهما من آثار الفراعنة الشيء المدهش الذى يقصده الناس من أطراف الدنيا فكرنا فى القيام برحلة خاصة إلى هناك : الاخوان علوى جفرى وعبد اللطيف جمجوم وكاتب السطور هذه وأحضرنا أوراقا من الكلية أن عندنا رحلة رسمية وأن التكاليف للشخص خمسة جنيهات ، وكانت هذه الأوراق [مفبركة] حسب المعتاد .. وذهبنا لنأخذ تذاكر بالقطار .. والنظام فى الأجازات خصم نصف قيمة التذكرة ، فيأخذ الراكب تذكرة للذهاب ولكن يسمح له باستعمال نفس التذكرة فى الإياب .. وفكرنا أن نأخذ تذاكر للأقصر فقط ثم نفكر فى الوسيلة التى نركب بها من الأقصر إلى أسوان وكنا نجهل بعد المسافة وأنه لا توجد مواصلات منتظمة إلا بالقطار .. وقلنا : إذا لم نجد إلا القطار فيمكننا أخذ تذاكر مخفضه من الأقصر إلى أسوان دون أن يكون هناك فرق .. ووصلنا إلى الأقصر .. وكانت الجيوب لا تزال عامرة فلم يعجبنا إلا فندق [سافوى] الارستقراطى .. وقدموا لنا العشاء الفاخر والعادة تقديم [زبادى] بها ماء مع الفاكهة لغسلها وغسل الأيدى ولكننا ظننا الماء نوعا من الحلوى وبدأنا نشرب بالملاعق والناس والسفرجيه يضحكون . . وفى اليوم التالى استأجرنا حميراً لزيارة الآثار ، وكان حمار علوى قصيراً فأصبحت رجله

تحت الأرض .. وأخذنا نداعب حماره بلغته الخاصة فأوقعه الحمار على الأرض .. ولما أردنا السفر من الأقصر إلى أسوان ، علمنا أن التذاكر هنا كاملة وليست مخفضة وشربنا المقلب .. واهتزت جيوبنا المتواضعة لهذا الحادث الجلل وقررنا أن نتخذ لنا شعاراً لباقى الرحلة وهو [حاسب] . فما يكاد أحدنا يحاول شراء شيء زائد أو يريد الفنجرة حتى ينطلق صوتان فى وقت واحد [حاسب] . وفى أسوان لم نجد مكانا فى الفنادق إلا فى [جراند] و [كتراكت] ولم تكن النقود التى معنا تكفى لليلة واحدة فى أحد ذينك الفندقين وأخذنا نستعطف أصحاب الفنادق دون جدوى وأخيراً لجأنا إلى مدير أسوان وكان يشهد مباراة رياضية فأرسل الرجل معنا من يوصى أصحاب الفنادق وكان الليل قد أقبل وأخيراً رحمنا صاحب فندق وتعهد بإعطائنا طراريح على أن نبيت فى دهليز الفندق ففرحنا وشكرنا للرجل مروءته . وقضينا الليلة فى ذلك الدهليز المعتم ، وفى الصباح أدركنا أننا لم نكن وحدنا فى الدهليز ، فقد كانت تشاركنا فى المبيت فئران كبيرة ، رأيناها تقفز فوقنا وحمدنا الله لأننا لم نشعر بها فى الليل فقد كنا فى نوم عميق بسبب تعب الرحلة .

الباذكوك يحمل السلاح

للزميل البادكوك نوادر لطيفة سأذكر جانباً منها هنا علاوة على ماسبق فى هذه المذكرات ، أو اختتمها بقضية حمل السلاح ... على أن الذكرة قد تسعفنى بمجموعة أخرى فى المستقبل ..

كان من عادة البادكوك ـ ونحن فى مدرسة البعثات بمكة ـ أن يرتدى أنخر ملابسه عصر كل يوم ويقصد إلى المسعى لقضاء المساء مع بكر باناجه . وكان البادكوك عند الحميدية عندما أمسك به شرطى واقتاده إلى الحميدية لأن ذقنه محلوقة، ولم يخرج البادكوك إلا بعد أن أسعفه الشيخ العريف بالغرامة وقدرها سبعة ريالات ونصف وكانت مبلغاً جسيما فى ذلك الوقت . . وفى ذلك يقول البادكوك من قصيدة فكاهية طويلة :

سبحان ربك رب العزة الصمد

ماذا أصبت به فى ليلة الأحد

. . . . وقلت اليوم تمشية

وكنت أحسب أن المنع لم يرد

لبست بدلة هايلايف ومنظرتى

ورحت أمشى إلى المسعى على تؤد

وبينما أنا ماش إذ أتى رجل

وقال هيا معى فى شرطة البلد

كلم عميمى [عليا] فى مخالفة
ماقال ذلك إلا مت فى جسدى

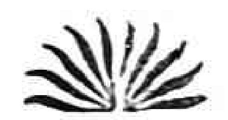
ثم يقول :

وقلت للضابط المشغول فى هلع
ياضابط الجند لا تنظر إلى أحد
فقال. إما إلى سجن تبيت به
أو حالا ادفع رسوم الذقن وابتعد
وعند ذاك دفعت السبع يتبعها
نصف وحالا مضى لى البيه على السند

والبادكوك ينتابه أحياناً ذهول . كان الوقت شتاء فذهب إلى الكلية فى مصر وهو يلبس سروالا طويلا له دكة تحت البنطلون ، ولكنه نسى تزرير البنطلون ، فكان منظراً عجيباً فى الكلية والدكة بارزة أمامه من فتحة البنطلون . . ومرة أخرى كنا خارجين وانتظرنا أحمد شطا ليلبس ، وعند ذلك انفجر البادكوك ضاحكا ولما سألناه عن السبب قال إن أحمد يلبس الكلسون الفنلة مع جعل فتحتها إلى الأمام [مع أن هذا هو الطبيعى] .. ولكن ظهر لنا أن البادكوك حتى ذلك اليوم كان يظن أن الوضع الطبيعى هو لبس الكلسون مع جعل الفتحة فى الخلف لطرد الغازات .

وفى أحد الأيام اضطر البادكوك لحمل السلاح .. تضارب مع البغدادى وكنت وأسعد عزوز نحرش . وبدأ البغدادى المصارعة بحركة بارعة ،

فنزع نظارة البادكوك وألقاها جانباً وأصبح البادكوك لايرى . و الطبع تغلب عليه البغدادى . وكان البادكوك يصيح فينا : [أعطونى النظارة] ويضربنا ويرفسنا . ثم هرب البغدادى وأقفل غرفته خوفاً من انتقام البادكوك . . فقد أخرج مطواة من درجه وجاء يريد كسر باب غرفة البغدادى ، فوقفنا أنا وأسعد نحميه بعد أن تطور الأمر والبادكوك يضربنا بيديه ، والبغدادى يقرأ الشهادتين وماتيسر من القرآن . . وأخيراً هدأ البادكوك وظل البغدادى وقتاً طويلا يخاف من البادكوك ، ويخشى من التمليح



مشروعات زواج

كان أسعد جمجوم موفقاً نخاطبة للبعثة . . كان يتمشى مرة على النيل مع صديق ، وخطر له فجأة أن يذهب إلى أحد البيوت فى الروضة للخطبة . طرق الباب ودخل قبل الإذن له فوجد رب الدار يصلى المغرب ؛ فنوى الصلاة خلفه ، ولم يسع صديقه الداهل إلا أن يتبعه . وسلم الرجل ثم التفت وفوجىء بهذه الجماعة الدخيلة . . وحبك أسعد الدور فقبل يد الرجل واضطر صديقه مرغماً أن يتبعه ، ثم تكلم أسعد ؛ وبلا مقدمات طلب القرب من الرجل لصديقه ، وعقدت الدهشة لسان الصديق ، وخجل أن يتنكر أو يتكلم أو يتراجع . ونظر الرجل إلى ملابسهما وإلى الطريقة التى أتيا بها وردهما رداً كريماً .. وقد أغفلت إسم الصديق ، لأنه متزوج الآن أما أسعد [فقطوع راس] لا يهمه شىء .

والبادكوك كان يمنى نفسه بزواج قريبة له . . وكان حين يذكرها لا يقول إلا [خطيبتى] . . ثم خطبت الخطيبة لزوج آخر وتزوجت وأصبح بادكوك لا يتحدث عن هذا الزوج إلا [بزوج خطيبتى] ثم رشحنا له بنت مليونير ليتزوجها . . وكانت صورتها تظهر دائماً فى الصحف .. ومرة أخرى تزوجت هذه الخطيبة ، وتقبل البادكوك التعازى يوم أن أعلنت الصحف خطبتها .

وألح أسعد على الشيخ عمر رفيع فى الزواج وتولى الخطبة له ، وأخذ

يدور معه من بيت إلى بيت ، والشيخ عمر يبدى لأسعد ملاحظات طريفة لا تتسع لها المذكرات .. وأخيراً وفق أسعد لزواج الشيخ عمر من بيت الجمجوم المقيمين بمصر ، وذهبنا لكتب الكتاب وكان الحفل بسيطاً مقتصراً على الشيخ عمر وأسعد والبادكوك وعبد الله شرف وبعض أقارب العروس وأنا .. ورأيت أن أكبر يوم الشيخ عمر فأخذت ورقة وقلماً لأكتب أبياتاً ، وأعطيتها للبادكوك ليجسها ، ولكن الشيخ عمر اعترض ظنا منه أنها من نوع الشعر الذى ألقيناه نشيداً فى البعثة عن الشيخ عمر والشيشة .. ولكن بادكوك طمأنه وأخذ يجس هذه الأبيات ، والمأذون مبسوط يتمايل يمينا ويساراً وهو يقول [الله طيب] والبادكوك منسجم وكأنه مغن محترف ويقول:

تمثل فرقداً وبدا هلالا وأوفى فى سما العليا مثالا

أصاب من المكارم كل خير ونال من الفضائل واستطالا

لتهنك زوجك الفضلى وبيت

من الجمجوم قد زان اكتمالا

ومتعت البنين وعشت دهراً

ودمت منعما عصراً طوالا

وانبسطت أسارير الشيخ عمر ؛ وتم الحفل فى سلام .

الزيارة المزعومة

كان جميل مردم بك سفيراً لسوريا بالقاهرة . وأعلنت الصحف أنه عين سفيراً لدى المملكة السعودية إضافة إلى سفارته فى القاهرة ، وأنه يستعد للسفر إلى المملكة لتقديم أوراق اعتماده . . وكنا ذات ليلة نتمشى أنا وأسعد جمجوم والكعكى ، واتفقنا على أن يكلم أسعد البعثة فى التليفون فى صباح اليوم التالى ويخبرهم أنه موظف بالسفارة السورية ، وأن جميل بك سيزور البعثة فى العصر بمناسبة سفره إلى المملكة . . واهتزت البعثة للنبأ ، وأخذ الشيخ عمر رفيع فى الاستعداد . . كلف أسعد بعمل زينات كهربائية . . وطلب من اللجنة الأدبية إعداد برنامج مناسب .. وبعث إلى السوق لشراء حلوى وجاتوه لحفل الشاى .. وأحضر بعض الأثاث من بيت السيد ولى الدين أسعد ، وكسرت يومها طرابيزة رخام من هذا الأثاث . . واجتمعت اللجنة الأدبية برئاسة حسن فقيها وأعدت برنامج الحفل . . وجادت قريحة مصطفى نصر الدين بقصيدة ، ولكن بعد إعداد البرنامج فرفضتها اللجنة ، وأخذنا نحمسه ضد اللجنة وضد حسن فقيها بالذات ، فتحمس وقال : إنه سيلقى قصيدته على رغم اللجنة ، ثم رأى أن يشكو اللجنة للشيخ عمر . . ولكن الشيخ عمر لم يوافق على قصيدته . فلما ألح عليه مصطفى قال الشيخ عمر : [لو كنت سحبان فسوف أمنعك من إلقاء القصيدة] .

وجاء العصر وكان الاستعداد تاماً . . ونحن نشارك الزملاء في الاستعداد ، وقد ارتدينا ملابسنا عدا الكعكي الذى كان بملابس البيت . . وكان كلما غلبه الضحك دخل غرفته وأوصد الباب وضحك ، ثم خرج ليتفرج على الاستعدادات ، ورابط الشيخ عمر عند الباب في الوقت المحدد ، وكان يرافقه البادكوك وأسعد .. ومضت الساعة المحددة ولم يأت الزائر ، ولما طال الانتظار طلب الشيخ عمر السفارة السورية تليفونياً فردوا عليه بأن جميل بك [مرشح بالفرشة] فلم يفهم الشيخ عمر مايقصدونه ، وطلب من هشام الرومى أن يفهمه فقال : إنهم يقولون إن جميل بك مزكوم ونائم في الفراش وإنه لم يعط هذا الموعد للزيارة .. وخرج الشيخ عمر وهو يسب ويلعن وحوله البادكوك وأسعد ، وأعلن الخبر للطلاب فانهالوا على الحفلة أكلا .. والشيخ عمر لا يزال في سخطه وسبابه ، وكان يقول : [طيب قولوا لى ياناس المصاريف التى صرفناها نقيدها على أى بند ؟] .

أصول الكشافة

كان الطريقى قد سبقنا إلى الابتعاث فوجدناه فى مصر ، وهو أكبر منا سنا وله لحية محترمة . فتوثقت بيننا أواصر الحب الممزوج بالاحترام وكان طالبا فى كلية العلوم وكنا فى إعدادى الطب الملحق بكلية العلوم ، وكانت للطريقى شخصية محبوبة بين الطلاب . وكان يساهم فى نشاط الكلية ، ويكتب فى صحيفتها بتوقيع [أبو صخر] وقد سمى ابنه صخراً فيما بعد . . وأراد الطريقى أن ينقل جانبا من نشاطه إلى البعثة ، فأخذ فى تدريبنا على أصول الكشافة وواجباتها ، ورأى أن يجمع بين التدريب النظرى والتطبيق العملى ؛ فأقمنا معسكراً فى حلوان فى النادي الرياضى التابع لوزارة المعارف .. ونصبنا خيامنا وأخذنا فى أسباب اللهو البرىء والرياضة حتى إذا جن الليل وسكن الزملاء ، تحركت الخيام وخرج من تحتها جماعة الاشقياء ، فأخذوا ينزعون الخيام فتغطى النائمين فيها بعد أن يلقى على النائمين ما يتيسر من التراب والحجارة الصغيرة . وكانت خيام الطريقى وباحجرى فى مقدمة الخيام المقصودة . وثارت ضجة وأخذ باحجرى يسمعنا من السباب المعهود فى سوق العلوى بجدة ، كما أخذ الطريقى ينتقد هذه الروح ويلقى علينا درساً جديداً فى أصول الكشافة وآدابها وظننا أن الموضوع انتهى عند هذا الحد ولكنا فوجئنا فى الليلة التالية باقتلاع جميع الخيام وعندما بحثنا وجدنا أن الطريقى هو الذى قاد الحملة فى تلك الليلة وقد أعجبته هذه الطريقة الكشفية الحديثة ، وأدخلها فى

فصول الكشافة وآدابها .. ثم انفلت الحبل؛ وأصبحنا نتبع طرقنا المألوفة فى رحلاتنا وما كان أكثرها .

ويوم تخرج الطريقى أقمنا له حفلا فى دار البعثة ، وألقيت الخطب والقصائد المناسبة .. وألقيت زجلا أوله :

فى مرة جيت م الكلية　　وجدت زيطة عند الباب
إخوانا فى روحه وجيه　　ومشغولين بسؤال وجواب
واللى نازل لى بطاقيـــه　　واللى يطرقـــع بالقبقاب

فقلت خير إن شاء الله كان

أول ما جانى عـــلى بالى　　إن العصابة عاملة هجوم
فقلت بالله يا أبو عالى　　دى فرصة عمرها ما تدوم
ورحت أجري طوالي　　على الزعيم أسعد جمجوم

وقلت يا الله يا أبو سعدان

قام قال لى أعمل لك أنا إيه　　هى الطريقى يا ابنى روح
فقلت يا سيدى عـــلى إيه　　قال لى نجح وبقى مشروح
فرحت أجرى دغرى عليه　　هنيته بلسانى والروح

وبقيت كده مبسوط فرحان

ثم تدرج الزجل إلى حياته معنا فى البعثة ، ثم وجهت إليه نصيحة عندما يعود إلى المملكة ليعمل [وهو متخصص فى الجيولوجيا] فقلت :

ولما توصـــل أول يوم ويسألوك إيش الأخبار
إن قلت أنا عندى دبلوم فى الأرض أو علم الأحجار
يروحوا مدينك قدوم وتسير قرارى تنتقى نهار

بريال حرش أبيض رنان

وإن قلت أنا أخصائى فى الزيت وفيه قضيت كل التعليم
ويا ما تعبت وياما لاقيت حياتى سهد وجهد عظيم
شوفوا لى شغل أفتح به بيت يروحوا مدينك لغنيم

تلعن وتقول ياريت ما كان

النصائح التناسلية

وجدنا فى أحد الكتب القديمة فصلا يحوى بعض النصائح التناسلية، وفية بحث طريف عن الطرق والأساليب فقررنا أن نطبع منه عدداً من النسخ نوزعها على موظفى وطلاب البعثة لتعميم الفائدة .. وذهبت مع أسعد جمجوم والكعكى إلى محل خاص للطباعة على الآلات الكاتبة فى شارع عبد الخالق ثروت .. وقدمنا الأوراق لصاحب المحل لطبعها وعندما بدأ الرجل فى القراءة انسحب أسعد والكعكى ووجدت نفسى منفرداً فتشجعت وبقيت، وأخذ الرجل يقرأ ثم يختلس إلى النظرات فطمأنته أن هذه إنما هى للدعابة مع إخواننا الطلاب فاقتنع .. وخرجت لأجد أسعد والكعكى خارج المحل مستغرقين فى الضحك .. وعدنا فى اليوم التالى وأخذنا الأوراق وأودعناها البريد لجميع من فى البعثة من السيد ولى الدين حتى أصغر طالب .. وأضفنا على النشرة حاشية [لزيادة الاستيضاح إتصلوا بعنوان كذا] وكان هذا العنوان هو سكن البادكوك مع أبناء خاله عبد الله وحامد باغفار . ووصل البريد إلى البعثة وبدأ التوزيع على الموظفين لأن الطلاب كانوا فى كلياتهم فى الصباح أما الأستاذ حمزة شحاته [وكان محاسباً للبعثة] فقد إمتدح النشرة وما فيها من معلومات قيمة واستقبلها بروح رياضية لم تخل من تعليق ظريف .. وأما السيد إبراهيم الوسية فقد ترك ما عنده من أوراق وجمع صغار الموظفين والخدم وأخذ يقرأ عليهم النشرة بصوت عال وبضحكاته وفكاهاته المعروفة ..

وأما الشيخ عمر رفيع [مدير الإدارة] فقد ابتسم لما فيها من معلومات طيبة وكان على [وش جواز] .. ولكنه ما كاد يعرف أن عشرات من هذه النشرة قد أرسلت للطلاب حتى ثار وأمطر الناشرين بسبابه المعهود وجمع النشرات فلم تصل لأحد من الطلاب .. وأما السيد ولى الدين [المدير العام] فقد حضر إلى البعثة فى المساء وأخذ يتصفح الرسائل التى حملها إليه البريد وكانت النشرة بينها ، وصادف أن كان أسعد واقفا عنده وقتها ، فأخذ يقرأ النشرة وكلما انتهى من جملة اختلس نظرة لأسعد من تحت الورقة فلما انتهى منها مزقها وهو ساكت وألقى بها فى سلة المهملات وأما البادكوك وأقرباؤه فقد تلقوا نشراتهم لأنهم كانوا يسكنون خارج البعثة وسروا لما جاء فيها من معلومات ومن نصائح..وقرروا أن يستزيدوا من هذه المعلومات وأخذوا فى الاستعداد لكتابة خطاب إلى العنوان الذى حددته النشرة لطلب نصائح أخرى وأحضر البادكوك النشرة ليكتب العنوان على الظرف .. واكتشف أن العنوان لم يكن سوى بيته فارتمى على الكرسى وهو يقول [حسبى الله] ثم استغرق هو وأقرباؤه فى ضحك طويل ..

مع الطلاب

كانت لنا مع إخواننا طلاب البعثة مظاهر نشاط متعددة ، وكان للبعثة اتحاد للطلاب ساهمت فى إنشائه واشتركت فى لجانه وكان يضم لجنة أدبية ولجنة للرحلات ولجنة لمراقبة إعاشة الطلاب فى البعثة وغيرها وكان السيد ولى الدين أسعد مدير البعثة يشجع إنشاء هذه اللجان ويعطيها صلاحيات طيبة فى مراقبة شئون البعثة ، وكان للبعثة حفلات كثيرة ، أهمها الحفل السنوى لتكريم الخريجين ، ومن أهم الحفلات التى أقمناها فى البعثة حفلة تكريمية لسعادة السيد محمد طاهر الدباغ مدير عام المعارف الأسبق وكان قد حضر إلى مصر للاستشفاء بعد أن انتقل من المعارف إلى مجلس الشورى فأقمنا له حفلا كبيراً قدمنا فيه لوحة تذكارية وقد سر سعادته لهذا التقدير الذى لقيه من طلابه وكان هذا بعض الواجب من الطلاب نحو رائد عظيم من رواد العلم فى البلاد .

وبجانب هذا النشاط كان لنا نشاطاً آخر مع الطلاب خارج دار البعثة .. كنا نحب حضور المحاضرات والمناظرات خاصة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ولعل جامعة الرياض تحقق هذه الأمنية التى يتمناها الناس لشغل أوقات الفراغ بما ينفع .

وكان لزملائنا الطلاب نشاطا آخر كنا مجبرين على التفرج عليه .. كنا فى إعدادى الطب وكانت محاضرات المرحوم الدكتور محمد ولى

يحضرها طلاب الجامعة من طلاب الطب وغيرهم وكانت المحاضرات تلقى باللغة العربية فى علم الحيوان . . وكانت المحاضرات تتميز بطابع المرح ويستغلها الطلاب وتمر المحاضرة بين التصفيق والصراخ والغناء ويحضر بعض الطلاب زمامير [وطار بشناشن] وينفعل الأستاذ وتمر المحاضرة دون أن نفهم شيئاً .

وكثيراً ما كان الطلاب يمتنعون عن الدروس لأسباب تافهة. ويتدخل البوليس ويطاردهم وكثيراً ماأصابتنا هراوات البوليس ولا يكاد الطلاب يتركون الجامعة حتى تغص بهم دور الحفلات الصباحية . . وكثيراً ماكانت الجامعة تغلق لأيام طويلة ويتعطل التدريس ولكن المقررات هى المقررات والامتحان هو الامتحان ويتأرجح مصيرنا فى الامتحانات مع مصائر الطلاب ، ولم تكن لنا ناقة ولا جمل فى هذه المصائر التعسة .

لقد كانت سنوات مرح ومشاكل . . وإن ذكراها لمن أحب الذكريات . وكثيراً مايحن الإنسان إلى الماضى، ولكن هل من عودة ؟



مزاد في باخرة

كنا مجموعة من طلاب البعثة اعتزمنا العودة إلى الوطن لقضاء أجازة الصيف . . ولم تكن الطائرات قد بدأ استعمالها فى المواصلات بالصورة الحالية..ذهبنا إلى السويس وبحثنا عن أوتيل متواضع فوجدنا واحداً فى شارع فرنسا ، وبقينا فيه ثلاثة أيام ننتظر الباخرة . . وكان من المجموعة : أمين جاوة وأسعد جمجوم وعلى غسال وحبيب كوتر وزين العابدين الدباغ ومحمد بادكوك وغيرهم . . وكانت صاحبة الفندق امرأة عجوزاً أجنبية . . وكانت تعاملنا بقسوة وتطفىء الأنوار فى وقت مبكر حتى لانسهر . فأردنا الانتقام منها وأخذنا نقضى حاجتنا الخفيفة فى البلكون وفى إحدى الليالى علق أسعد قبقاباً فى السارية الخاصة بالعلم وهذا يعرض الأوتيل لعقوبة شديدة . وكنا كلما تأزم الموقف بيننا وبينها أرسلنا لها البادكوك فقد كانت علاقتها به طيبة ، ويجلس البادكوك بجانبها ويقول لها [أنت تشبهين أمى] فتنفرج أساريرها وترضى عنا . وكنا نتمشى يوماً فى شوارع السويس وقابلنا بعض أهالى ينبع ونحن نرتدى الملابس الأفرنجية فسألناهم السؤال التقليدى [ينبع فيها منارة] فدهشوا لأن هذا السر قد انتقل إلى السويس وظنوا أننا مصريون ومع ذلك فقد أجابونا بالإجابة التقليدية أيضاً .. وأخيراً ركبنا الباخرة بعد أن اشترينا مقاضى الطريق فقد كنا نركب فى الدرجة الثالثة على سطح

الباخرة . . وفى الباخرة بدأ الانسجام وكنا فى شهر رمضان ولكننا كنا مفطرين لأننا على سفر . . وكان معنا حاج هندى يحب أن يقرأ القرآن بصوت يظنه رخيما فما نكاد تقول له حتى وهو نائم [قرآن شريف] حتى يهب جالساً ويأخذ فى التلاوة ، وكنا لا نتركه ينام أبداً، ولم نكن نحن ننام أيضاً فقد كنا فى شغل شاغل بالمقالب والأذية . . ومن الطريف أنى زرت مع البادكوك الأستاذ أحمد قنديل بمكتبه فى جدة ودخل علينا الحاج الهندى وكدنا أن نقول له على الرغم منا [قرآن شريف] وتبادلت مع البادكوك النظرات ولكننا كتمنا شعورنا على مضض . وفى اليوم الأخير للرحلة بقيت عندنا بعض مواد التموين والأثاث فقررنا أن نقيم مزاداً ونبيعها ونتقاسم القيمة . . وكان من ضمن هذه المواد قلتان كبيرتان مما يستعمل فى مصر لتبريد الماء ولها بزبوز فأغرينا زين العابدين على شرائهما بعد أن عددنا له فوائدهما وما كاد يدفع القيمة حتى ألقينا القلتين فى البحر . . أما البادكوك فقد اشترى قبقابين كبيرين بخمسة قروش مصرية بينما يساوى القبقاب الواحد فى جدة ريالا ونصفاً وكان فرحاً بها ويتوقع أن والدته ـ رحمها الله ـ سوف تفرح للحصول على هذين القبقابين . وهكذا انتهت هذه الرحلة الطريفة وهيهات أن تتيسر لنا المتعة التى وجدناها فى هذه الرحلة مرة أخرى .

محاكمة أسعد جمجوم

كان يوم الحفل السنوى للخريجين فى دار البعثات بهيجاً فى ذلك العام، وقد رأس الحفل سمو الأمير عبد الله الفيصل ، الذى كان يزور مصر فى ذلك العام . ومن أهم مظاهر ذلك الحفل قصيدة رنانة ألقاها الأستاذ حمزة شحاته وهو وإن كان من فحول الشعراء فقد كان قليل الإلقاء ولذلك كان عظيماً فى إلقائه وفى معانى شعره فى ذلك اليوم . وكان بين الخريجين فى ذلك العام أسعد جمجوم فأردنا تحيته على طريقته الخاصة ولذلك وضع بين برنامج الحفل [محاكمة أسعد جمجوم] .

بدأت المحاكمة وكانت المحكمة مشكلة برئاسة أحمد المبارك وعضوية حسن بابصيل وعضو آخر لا أذكره الآن ومثل الإدعاء العام عبد الله مراد ومثل الدفاع أنا والبادكوك وثالث لا أذكره الآن وظهر أسعد جمجوم فى طرف المسرح وقد أقمنا حوله قفصا من أقفاص الدجاج لأننا لم نجد غيره . . وبدأ عبد الله مراد مرافعته بالجملة التقليدية : [حضرات القضاة . إن هذا المجرم الواقف أمامكم .. إلخ] ثم أخذ يعدد حوادث أسعد ومقالبه وأعمال العصابة ويطلب التشديد فى عقوبته وكان من ضمن حوادثه إشاعة خبر وفاة الشيخ حامد رويحى الذى كان بين المدعوين للحفل مع عدد كبير من السعوديين الذين كانوا بمصر .. ثم أخذت أدافع عن أسعد وأبين حسن نيته وأنه كان يريد إظهار شعور الناس نحو الرويحى ونحو عمر عقيل الذى سنروى حادثته فى فصل خاص من هذه

الذكريات .. وكان أسعد مرشحا لإدارة المدرسة الصناعية بجدة ، ولذلك ختمت مرافعتي بأبيات أذكر منها ما يلي وأرجو أن يقرأها تلاميذ سيبويه بشيء من التسامح .

(ما على مثلك باس يجرح الدهر ويأسو)
وأنت يا ابني روح اشغلك ربك يرزق كل ناسه
بكره تنجح في الصنائع والتلامذه لن يقاسوا
اللي جيلك ماشي حافي واللي جي من غير لباسه
قل لهم مصنعنا هذا جردوه من فوق لساسه
اللي يخرج شال له فارة واللي راح وف إيده فاسه

إلى آخره ..

ثم أصدرت المحكمة حكمها وهو يقضي بالبراءة لأسعد ، وبإحالة أوراق الشيخ حامد رويحي للمفتي ..

قصة زواج

تمت خطبتى وأنا فى المدرسة الثانوية ، والتحقت بالجامعة وأنا خاطب مع وقف التنفيذ . وفى أول أجازة صيفية لم أعد إلى المملكة لأنى كنت أستعد لاختبار الدور الثانى . فلما جاءت الأجازة الصيفية الثانية ولم يكن لدينا اختبار وكان لابد من عودتى إلى المملكة ، كتبت لوالدى أنى أرغب فى قضاء الأجازة الصيفية عندهم ، ولكن على شرط عدم إتمام الزواج إلا بعد التخرج ، فقد كانت هناك دلائل على أنه فى النية عقد مجموعة زيجات فى العائلة . فكتب لى الوالد يطمئنى بأن ذلك لن يتم وأن لى مطلق الحرية فى الزواج أو التأجيل . جئت مطمئنا .. وبعد قضاء جزء من الأجازة بدأ الاستعداد للزواج وكان يضم أربعة عرسان وأربع عرائس من العائلة وكنت واحداً منهم .. فذكرت الوالد بالوعد .. ولكن العائلة أصرت على أن تتم جميع الزيجات أو تؤجل جميعها..وأخذ الوالد يبذل لى النصح بطريق مباشر مرة وبواسطة الأقارب مرة أخرى.. وأخذت فى الاعتذار خاصة وأن الزواج كان يعنى بالنسبة لى قضاء بقية الأجازة فقط مع الزوجة ثم العودة وحدى لإتمام الدراسة ، فلم تكن حالتى تسمح باصطحاب زوجتى معى إلى مصر .. وهذا أهم ما كان يجعلنى أعارض فى هذا الزواج بالمراسلة . ولجأت إلى ابن عمى ـ رحمه الله ـ للتدخل ولكن دون فائدة ، وتطور الموضوع وأصبحت طاعة الوالد ورضاه فى الميزان .. ولذلك قبلت الزواج .. وأمضيت شهر العسل فى

جدة وكان خلال شهر رمضان ، وبذلك أصبح لى دون خلق الله نصف شهر عسل فقط .. وعدت لإتمام دراستى .. وكنت أعود إلى المملكة فى الأجازات الصيفية فقط حتى وصلت إلى السنة الدراسية الرابعة حيث لحقت بى زوجتى ومعها إبننا الأكبر . . وقد استقرت أحوالى الدراسية بعد ذلك .. وانتظمت مذاكرتى بعد الحبس الاضطرارى فى البيت . ورزقت بنتاً وأنا أؤدى الامتحان النهائى ورغم ذلك فقد أديت هذا الامتحان بنجاح تام ، وحطمت قول القائل : [ذبح العلم بين الاختلاط بالنساء] لقد كانت قصة فيها عبرة فإنه رغم ظروفى الخاصة آمنت بأن زواج الأولاد يجب ألا يتم قبل انتهائهم من الحياة الدراسية [فليس المخاطر محموداً وإن سلما] .



حادث جلل ؟

وأى حادث يمكن أن يفوق خبر وفاة السيد عمر عقيل ؟ [أمد الله فى حياته] . . لقد كانت تلك الشائعة فاجعة كبرى ، أظهرت ما للسيد من مكانة عظيمة فى قلوب أبنائه ومريديه .. وكانت مبعث سرور ورضا فى نفس السيد. أما كيف بدأت القصة ، وكيف انتهت فهذا ما سنقدمه فى هذه الحلقة .

كان سمو الأمير عبد الله الفيصل يزور مصر للاستشفاء وله فى قلوب الطلاب مكانة كبيرة .. فأقام طلاب البعثة حفلة كبرى له فى دار البعثة .. وأصر السيد عمر يومها على إلقاء خطاب ارتجالى ، فألقى هذا الخطاب ، وكان مليئاً بالحكم والمواعظ [لا أراك الله] وكان من أطرف ماقاله [إننى لا أذيع سر إذا قلت . .] وسكت فاشرأبت الأعناق لتعرف هذا السر الخطير فإذا به يكمل الجملة كما يلى [إذا قلت إن الامتحان قد أصبح على الأبواب] . . وانتهت الحفلة فأقام لنا سمو الأمير حفلة شيقة فى القناطر الخيرية وألقينا الخطب والقصائد والأزجال الفكاهية . وكنا نعدد المقالب التى عملناها فى مدير البعثة والمراقب ، فكان سمو الأمير يلتفت إلى الأستاذ عبد الحميد حمدى مراقب البعثة كلما جاء ذكر مقلب فيبادر الأخير قائلا (لا . مش أنا ، لقد عملوا هذه المقالب مع غيرى من قبل) .. فسكتنا وقد عزمنا على أن نتحف هذا المراقب الناصح بمقلب

تاريخى لا ينسى . وجاء يوم شم النسيم، فذهبنا فى صباحه إلى الإسكندرية أنا وأسعد جحجوم واثنان من أقاربه .. وفى الطريق قال أسعد : إنه يفكر فى إرسال برقية البعثة من الإسكندرية يخبرهم فيها بوفاة الشيخ صادق كردى مراقب البعثة فى الإسكندرية فاعترضت، لأن للشيخ صادق كثيراً من الأقارب فى القاهرة وحرام أن نزعجهم . . واخترت أن نبرق بوفاة عمر عقيل وكان فى بعثة الإسكندرية . . قضينا اليوم فى البحر ولم نزر دار البعثة هناك ولم يرنا أحد . وبعد الظهر قصدنا إلى مكتب تلغراف سيدى جابر ، وتهرب أسعد وأقاربه وتقدمت إلى شباك البرقيات وقدمت برقية تقول [توفى عمر عقيل بحادث . الجنازة باكر والتوقيع صادق كردى] وسألنى عامل التلغراف عن الحادث فأخبرته أنه حادث ترام وقدم لى التعزية اللازمة . . وعلى الفور عدنا إلى القاهرة فوصلنا إليها قبل وصول التلغراف ، وقد زار أسعد البعثة فى القاهرة وتأكد من ذلك . وكنت أسكن مع أسعد فى بيت خارج البعثة ولم يرنا أحد ونحن نسافر إلى الإسكندرية . . ووصلت البرقية إلى دار البعثة واضطربت . وكان المراقب قريب فى مجلس الوزراء واهتزت أسلاك التليفون بين القاهرة والإسكندرية لسؤال المستشفيات والشارح .. فعلم أن جثة وصلت للشرحة فى المستشفى الأميرى وأن طلاباً من البعثة السعودية بالإسكندرية سألوا عنها [وهذا لم يحدث طبعاً ولكن عامل المشرحة فى الإسكندرية ذكرها فجاءت مناسبة للمقام] .. وأخذ الدكتور عمر أسعد يتصل هو الآخر بمستشفيات الإسكندرية للتأكد .. وأخيراً استقر العزم، وسافر المراقب ومعه إبراهيم وهاشم ومحمد الدباغ وغيرهم

ولم يجدوا فى ذلك الوقت وسيلة للسفر إلا قطار البضائع الذى يقف فى كل محطة، ووصلوا فى وقت متأخر من الليل .. أما أنا وأسعد، فقد كنا نغط فى نوم عميق فى دارنا، وجاءنا الدكتور عمر أسعد والدكتور حامد هرسانى يسألون عن الموضوع فأبصرونا فقالوا، لماذا لم تحضروا إلى دار البعثة أو تسافروا فقلنا أننا متعبون فقضينا اليوم فى القناطر ومن الطريف أن أحد الزملاء شهد أنه رأى سيارة أسعد فى القناطر .. ووصلت الحملة إلى الإسكندرية فلم يجدوا أحداً فى البعثة فتأكد الأمر لديهم، وبعد قليل وصل عمر وهو يترنم وقال (لقد شهدت الليلة نمراً لطيفة) .. وعادت الحملة .. وأوقف المراقب مخصصاتى ومخصصات أسعد .. لقد أعطى موظف التلغراف بالإسكندرية أوصافى .. ولكن المراقب كان خجلا من هذا المقلب الذى تورط فيه، فلم تمض أيام حتى أعاد لنا مخصصاتنا .. واستعدنا ثقة عمر وحبه بعد أن أخبرناه أننا لم نقم بهذا العمل إلا ليتأكد من ولاء الأصدقاء والمريدين.

القبض على رئيس العصابة

كان زيني العائش من الشخصيات اللطيفة فى البعثة ، وكان له أقارب بمصر يزورهم فى الأرياف ، ويأتى محملا بالأغذية ؛ ولذلك كان هدفاً لأعضاء العصابة حتى أننا ذات مرة لم نجد فى خزانته إلا بصلا وملحاً فصادرناه .. وكتب مرة لحسين العطاس كتاباً كله تأنيب وتقريع ،وكان أسلوبه إنشائياً ، فأعاده إليه العطاس مع تأشيرة [شاطر فى الإنشاء ٩/١٠] .. وفى بعض الأيام كان العائش يلبس بدلة رياضية ويمسك مضرب التنس ويقول (اليوم عندى ماتش تنس) ثم يتضح بعد التحرى أنه لا يعرف تنس ولا حاجة ، ولا يعرف من التنس أكثر من لبس البدلة وحمل المضرب . . وأحياناً يبكى ويلبس كرافتة سوداء ويقبل التعزية فى قريب له : ويظهر أنه لم يمت له أحد ؛ حتى أننا ضيقنا عليه ذات مرة وقلنا له: يجب أن نذهب معك للعزاء ولبسنا كرافتات سوداء وأخذ يدور بنا من شارع لشارع حتى ذهبنا إلى دار فيها مأتم فدخلنا وخرجنا دون أن يعرفنا أو يعرفه أحد ،وتأكدنا من أنه لايعرف الميت وليست له أية صلة أو قرابة لعائلته . . لقد كان يحب أن يتظاهر بالحزن حتى يكون موضع عطف وإشفاق من زملائه . . وقد وفق ذات مرة فى القبض على أسعد جمجوم .. اختبأ تحت السرير ، بعد أن أحضر بعض

المأكولات من العزبة، ودخل أسعد إلى الغرفة ليأخذ الغنيمة فإذا بالعائش يظهر من تحت السرير ، ويلقى القبض عليه . . ولكنه كان زميلا لأسعد فى المدرسة فسرعان ما أوهمه أسعد بأنه مشترك فى العمل مع سعيد آدم وعلوى جفرى ولحسن ، المصادفة وجدا سعيد آدم فى الدرج ينادى على أسعد ، فصح ظن العائش وردح لسعيد آدم بما تيسر .. واتفق العائش مع أسعد اتفاقاً سرياً وخطيراً ، فقد تعهد له أسعد بإخباره عن حركات العصابة ووقت هجومها عليه .. وفى يوم بارد أخبره أسعد أن العصابة سوف تهاجمه فى ذلك المساء .. وقضى العائش المسكين الليلة تحت السرير فى انتظار العصابة ؛ وعند الصباح عرف أن الموضوع ما هو إلا مقلب كلفه قضاء الليل البارد تحت السرير .



مقالب خفيفة ..؟!

كان عبد الله مراد مصاباً بداء التشنج ـ خاصة عند ما يكون مفلساً ـ وكان ينتهز فرصة الصلاة ثم يتشنج بعدها ، ويرق السيد ولى الدين لحاله ويعطيه سلفة على حساب الراتب . وكان زميلا لأسعد جمجوم فى المدرسة، وكان أسعد يستحمل منه شتائمه وأذيته فى المدرسة لئلا يتشنج ، حتى إذا ركبا على سلم الترام أخـذ أسعد ينتقم ويشتم والمراد مغلوب على أمره ، وليس فى إمكانه أن يتشنج ويترك يديه الممسكة بالترام لئلا يقع .

وكان أسعد قـد طبع مجموعة من الأبواك باسم (مكتبة الشناوى) ومجموعة أخرى باسم (على إسماعيل ـ تاجر وترزى) ، وكان لنا مخصص كتب فى البعثة ومخصص لملابس العمل فى الكليات العملية ، فكنا نلجأ لأسعد حتى نستنزف هذا المخصص ونأخـذ منه فواتير تارة باسم مكتبة الشناوى وأخرى باسم على اسماعيل ونقبض الفلوس من البعثة . وكان السيد ولى الدين يعرف ذلك ولكنه يتجاهل . فمرة قدم له أسعد فاتورة من هـذه الفواتير ، فما كان من السيد ولى الدين إلا أن اخرج من درجه طوابع دمغة وقال لأسعد : (لقد نسى الرجل وضع الدمغة) وألصق الدمغة وأمر بالصرف . ومرة كان فى السوق مع أسعد فقال له : (أرنى مكتبة الشناوى) فأخذه أسعد فى مشوار طويل حتى أتعبه وأخيراً وقف به عند دكان مقفول فى الأزهر وقال : إن هذه هى مكتبة الشناوى

ولكنها مقفلة .. ولعل أسعد يحتفظ ببقايا هذه الأبواك فيقدمها لطلاب البعثات الحاليين .

ومرة كلم أسعد (حانوتى أقباط) بأن عنده ميتا وأعطاه عنوان البعثة وحضر الحانوتى ومعه عربة النعش التى يجرها عدة خيول وهى محلاة ومزينة ، واستقبل حمزه أبو شنب البواب هذه الحملة بأسوأ استقبال ، وذهب الحانوتى حانقاً بعد أن عرف أن هذه هى دار البعثة السعودية ، وليس من المعقول أن يكون فيها ميت مسيحى ، وأن اسم (الخواجا ولى أسعد) الذى أعطى له لم يكن إلا مقلباً قصد به مدير البعثة .

وكنت مرة أسكن مع البغدادى فى غرفة واحدة بعد أن تناولنا العشاء حضرنا إلى الغرفة فإذا دخان كثيف ينبعث منها ورائحة حريق ، فأخذنا نرمى فراشنا فى الخارج وأسعد والزملاء يساعدوننا وتطوع بعضهم برش الفراش والملابس بالماء ، ولكننا لم نجد أثراً للنار . وأخيراً تبين لنا أن أسعد جججوم أحرق خرقة فى غرفتنا ثم أطفأها ولما ملأ دخانها الغرفة أقفل الغرفة بعد أن ألقى بالخرقة فى دورة المياه ، وهكذا خيل إلينا أن فى الغرفة حريقاً كبيراً ولكننا لم نجد له أثراً وبتنا على فرش مبتلة ونشرنا ملابسنا حتى جفت .

هل تعلم .. ؟

* أن البادكوك عند ما كان يشهد روايات يوسف وهبي ينخرط فى بكاء مسموع كلما رأى منظراً محزناً، ثم لا يلبث أن يراجع نفسه ويقول بصوت مسموع (ياواد يا محمد بلاش قلة عقل، هذا كله تمثيل فى تمثيل) .. ثم لا يلبث أبو حجاج أن يميت ضحية أخرى، فيعاود البادكوك البكاء ويعود المنظر السابق .

* وأن أول لقاء كان بين المنيعى ومحمد عبد الهادى كان فى الطور وهما فى طريقهما إلى مصر ، وتم التعارف فى الليل وفى الصباح أكل عبد الهادى علقة من المنيعى وساءت العلاقات بينهما ولا تزال سيئة حتى الآن ، رغم مساعى أهل الخير .

* وأن محسن باروم أول ماحضر إلى مصر ، كنا نتمشى معه فلمح عربة حنطور وأحب ركوبها فقلنا له : لا مانع ولما سألنا بماذا ينادون سائق العربة فى مصر ؟ قلنا إنهم يسمونه (أبو لبن) .. فأخذ الباروم يناديه بهذا الاسم بلغة عربية فصحى كعادته ، ولوح الحوذى بكرباجه وأنقذنا الباروم فى اللحظة الأخيرة قبل أن يصيبه الكرباج .

* وأن معتوق باحجرى كان أكبرنا سناً وكان أستاذاً سابقاً لبعضنا كالبادكوك وحسنى بخش، ولذلك كنا نسميه (الشيخ معتوق) وكان جزاه

الله خيراً - لايضن علينا بالتثقيف والتوجيه ، ومن ذلك أنه علمنا طريقة المشى المنى وهى طريقة بسيطة تتلخص فى أن يمشى الإنسان دون أن يحرك شيئاً من نصفه الأسفل باستثناء الرجلين طبعاً . . وتصور الباحجرى وهو يتأكد من أننا نطابق القاعدة .

* وأن السيد ولى الدين مدير البعثة كان يمنعنا من الخروج من البعثة يوم شم النسيم ، فنجلس فى البلكون نتفرج على العربات الكارو وهى تحمل العوائل البلدية وهم يغنون ويرقصون على أنغام (سلم علىّ) .. ويتحمس البادكوك وحسنى بخش للمنظر فيتحزمان ويعيدان المنظر لنا فى البعثة ونحن نغنى (سلم علىّ) ونصفق للزوج غير المتناسق .

* وأن حسين العطاس وشلته وهى عادة تتكون من أسعد جمجوم وحسن فقيها ومحمد على البكرى عند ما كانوا يفلسون يمرون علينا بأوراق للتبرع لشخص وهمى مريض فى المستشفى ويجمعون مبلغاً محترماً ، وذات مرة أخذوا من البعثة دواليب ومفروشات وباعوها فى الكانتو وتقاسموا المبلغ الذى أخرجهم من أزمة مالية .

هل تصدق .. ! ؟

أن بعض الزملاء مثل شرف كاظم وحسن فقيها وحامد هرساني كانوا يتفننون في الحديث باللغة المصرية ويغالون فيقولون : [الآرورة] يعني القارورة و [الأعأع] يعني القعقع و [المنأة] يعني المنجة وغيرها . . وأن الباحجري روى لنا أنه كانت عندهم جارية تصاب بالجنون فتأ كل لحافاً بأكمله ..

وأن الطريقي كان ينام على سرير حديد دون مرتبة أو شرشف بل على الحديد مباشرة إمعانا في التقشف ..

وأن أحمد المبارك سمعه أبو السعود الإبياري وهو يغني فبشره بمستقبل طيب في عالم الغناء — لا قدر الله ..

وأن محمد حسين أصفهاني كان في مدرسة الفلاح بجدة مقرىء الفصل والمؤذن للصلوات ، أدام الله عليه نعمة التقوى

وأن حسني بخش وعبد الله أبو العينين كانا يسكنان في البعثة في غرفة واحدة ولهما منهج واحد في الحياة ، ويتعاونان في كل شيء حتى في عمل الطرنبة .

وأن غرفة عبد اللطيف جمجوم كانت تفتش يوميا وتنبش ملابسه بحثا عن مسروقات الأكل ، لأن أسعد جمجوم كان يسكن معه بالغرفة حتى أنه رجا مدير البعثة بأن ينقل أسعد إلى غرفة أخرى .

وأن حسن بابصيل كان يسكن فى غرفة وحده ، ففتح عليه البغدادى الباب لجأة وكب فى الغرفة كيساً من النورة البيضاء فانتشرت فى الغرفة وخرج البابصيل وهو أبيض وتماسك مع أسعد جمجوم ظناً منه أنه غريمه.

وأن البابصيل أرسل مرة مع حامد دمنهورى زجاجات شربات هدية لأهله فصادرتها البعثة ولم يستطع التفتيش أن يدل عليها ، وقد تبودلت على أثر ذلك مكاتبات بين البابصيل والدمنهورى وأسعد جمجوم تعد من عيون الأدب العربى . فى الردح ..

وإننا أثناء الغارات على مصر كنا ندير غارات أخرى فى دار البعثة كان هدفها حامد هرسانى وهو من الخوافين فكان يلجأ إلى سريره ويتغطى ويتلو أدعية الطواف والحج التى حفظها طيلة حياته .

وأن الحاج راضى بقال البعثة - وكان رجلا وقوراً متدينا - ولكن الطلاب كانوا يشكون من معاملته ويدبرون له المقالب ، وفى ذات مرة كلمه أسعد جمجوم على أنه السيد ولى الدين وطلب منه الحضور لبيت السيد ولى الدين ومعه فكة مائة جنيه ، وحمل الرجل الفكة وسار ثلاثة كيلو مترات حتى وصل إلى بيت السيد ولى الدين . وظهر أن الرجل الطيب كان هدفا لمقلب ضحك له السيد ولى الدين كثيراً ..

وأن عبد الحميد حمدى مراقب البعثة الذى لقى الأمرين من مقالبنا ، وكان ينقل عن الطلاب أخباراً ملفقة إنتهى كمراقب للبعثة بفضل جهود عدد من الطلاب ، وقد أسدل الستار على مساعيهم الطيبة .

ختام .. ! ؟

وأخيراً تنتهى هذه المذكرات التى سردتها من الذاكرة ، والتى بدأت فى كتاب السيد محمد عطية بجدة حيث كنا نستعمل اللوح فى القراءة والكتابة ولحس السويك والسمسم ، وانتهت فى الجامعة .. لقد كانت حياة لذيذة مليئة بالذكريات اللطيفة .. وإنى لتتمثل لذاكرتى تلك الأمسيات الحلوة التى كنا نترقبها للعب كرة الشراب بجوار بيت القنديل بجدة لنعود إلى منازلنا ملطخين بالتراب والعرق .. وتستعرض الذاكرة شريطاً آخر فى دار البعثة بمصر ؛ ونحن ندبر المقالب ونردد أغنية [نبوية أيا نونو] فنفسد على زينى العائش جلسته الهادئة. ثم يمر بى الاستعراض على أسعد عزوز وهو مغطى بالأغطية أيام البرد لا يبرح دار البعثة ليلا أو نهاراً .. أو وهو فى الباخرة دائخ لا يتناول طعاماً ويلازم غرفته حتى إذا هدأ البحر وصعد معنا على السطح تظاهرنا بالدوخة وتمايلنا يميناً ويساراً فيدوخ ويعود مسرعا إلى غرفته .

ولقد أمدنى الزملاء بكثير مما حوته هذه المذكرات ، وكان البادكوك فى المقدمة فذكرنى بكثير من الحوادث حتى التى تخصه ، فلما كثر ذكره بادرنى ببرقية يقول فيها [.. الناس أزعجونى تليفونيا وحضوريا يسألون عن البادكوك والكلسون ودكة السروال ومن هو إبن سيناء فهون رعاك الله] . وأعتقد أن كثيراً من الذكريات الطريفة لم أشهدها

فلعل من حضروها ينشرونها للذكرى ..

وإنى لأشكر الصديق طاهر زمخشرى الذى كان المشجع على كتابة هذه المذكرات .. وأشكر جريدة البلاد السعودية التى أفسحت من صدرها لها .. كما أشكر الأصدقاء الذين كانوا يتتبعونها ويروون تفاصيلها فى مجالسهم ويبدون من الاهتمام بها ما جعلنى أواصل النشر رغم مشاغلى ..

وإنى الآن أفكر فى طبع هذه المذكرات لا للبيع بل للإهداء للأصدقاء .. وقد وعدنى صديق كبير لديه إمكانيات الطبع بطبعها وتوزيعها ، ولكنه تملص من الوعد واعتبره مقلباً لى ، وقد وعدته بالمثل فى المستقبل إن شاء الله .. فهل أجد من يطبعها وينشرها دون أن يكون لى شىء من إيرادها سوى عدد من النسخ أهديها للأصدقاء .؟ لعلى واجد ذلك ، فإذا لم أجد طبعت عدداً من النسخ ووزعته هدايا وأمرى لله .

المحتـــوى

ترقبوا ... الكتاب القادم

هؤلاء ... أو الشياطين

مجموعة مقالات إجتماعية تناقش أهم الموضوعات الحيوية الهامة ... وتصور بأسلوب ساخر لاذع جانبا هاما من حياتنا الفكرية والإنسانية .

محمد سعيد باعشن الكاتب المعروف والصحفى الأول الذى شن أكبر حملة صحفية فى جريدة (الأضواء) على أمبراطورية أرامكو وتعسفاتها يصور لك بعض الشخصيات فى أسلوب رمزى مغلف .

فى الكتاب القادم

هؤلاء ... أو الشياطين

للكاتب المعروف محمد سعيد باعشن

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
ش ، حسني الطرزي بالسكاكيني ت ٤٠٨٥١

من سلسلتنا الثقافية

صدر منها

١ ـ النار والزيتون : ديوان شعر الاستاذ عبد الله عبد الوهاب (الثمن ٣ ريالات)

٢ محرر الرقيق : دراسة تحليلية لشخصية سليمان بن عبد الملك الأموى للأستاذ الكبير محمد حسن عواد (الثمن ٣ ريالات)

٣ المزامير : ديوان شعر ، للشاعر الابتداعى الكبير الاستاذ محمود عارف (الثمن ٢ ريالان)

٤ ـ الأذن تعشق : مجموعة قصص ، للأستاذ القاضى أمين سالم رويحى (الثمن ثلاثة ريالات)

٥ ـ أحاديث : أبحاث ومقالات فى السياسة والعلوم والاجتماع للدكتور النابة محمد سعيد العوضى (الثمن ٣ ريالات)

٦ ـ أمواج وأثباج : دراسات أدبية . لعبد الفتاح أبى مدين (الثمن ٣ ريالات)

٧ ـ مذكرات طالب : ذكريات عزيزة يكتبها بأسلوبه الفكاهى الساخر الدكتور حسن نصيف (الثمن ٣ ريالات)

تحت الطبع

٨ ـ اقتصادنا القومى وكيف ندعمه : لمعالى الاستاذ أحمد صلاح جمجوم

٩ ـ ماهى مقومات أدبنا الحديث : للأديب عبد العزيز فرشوطى

١٠ ـ هؤلاء أو الشياطين : للأستاذ محمد سعيد باعشن

١١ ـ امرأة تتأوه : للأستاذ محمد سعيد باعشن

وكتب أخرى سيعلن عنها قريبا . .

مخرجو هذه السلسلة الثقافية والعلمية

عبد الفتاح أبو مدين ، محمد سعيد باعشن